إسلامية المعرفة ...ماذا تعني؟

بقلم: د. محمد عمارة*

إسلامية المعرفة .. أو التأصيل الإسلامي للمعرفة في أدق وأبسط التعريفات هو: الإيمان بوجود علاقة بين المعارف والعلوم التي يكتسبها الإنسان وبين الإسلام الذي يتدين به، وذلك انطلاقاً من تأثيرات عقائد الدين وأحكام شريعته على العادات والتقاليد والأعراف والمواريث والآداب والفنون التي صاغت ومازالت تصوغ النموذج الثقافي لهذا الإنسان الذي يخوض ميادين البحث والاكتساب للمعارف والعلوم.

يسهم المعتقد الديني في تمايز الثقافة، التي تمثل المعارف والعلوم أبرز قطاعاتها وأخطر ميادينها

فالمعتقد الديني يلون نظرة الإنسان للحياة ويشكّل فلسفة رؤيته للكون، ويؤثر في تحديد مقاصده من وراء العلاقات الاجتماعية، وينهض بدور رئيس في تحديد معايير الحلال والحرام، والمقبول والمرفوض، والانتماء والمفارقة، وسمات الذات وسمات الآخر.. إلخ، ومن ثم يسهم هذا المعتقد الديني في تمايز الثقافة، التي تمثل المعارف والعلوم أبرز قطاعاتها وأخطر ميادينها.

والتصنيف الموضوعي المبدأي للمعارف والعلوم يقسم موضوعات مباحث هذه المعارف والعلوم إلى:

- العلوم الشرعية: مثل علوم العقيدة وأصولها، والفقه وأصوله، والقرآن وعلومه، والحديث وعلومه... إلخ.
- العلوم الإنسانية والاجتماعية: من مثل الاجتماع، والاقتصاد، والسياسة، والنفس، والفلسفة، والأدب، والفنون.. إلخ.
- العلوم الطبيعية، الدقيقة والمحايدة: من مثل علوم الفيزياء، والكيمياء، والفلك، وطبقات الأرض، والهندسة، والرياضيات.. إلخ.

وكذلك فإن نوعية ونسبة العلاقة بين الدين وبين المعارف والعلوم تتمايز هي الأخرى، فنسبة العلاقة – أي الأسلمة – بين الدين وبين العلوم الشرعية عميقة وعالية وشاملة، لدرجة أنها تسمى باسم العلوم الشرعية بإطلاق وتعميم، ودونما خلاف على هذه التسمية بين أحد من العلماء والباحثين، حتى أن الاجتهاد البشري فيها، والفكر الإنساني في ميادينها أي المعرفة الإنسانية المكتسبة في علومها، محكومة بثوابتها وأحكامها وقواعدها ومبادئها، التي هي وضع إلهي ووحي سماوي، يمثل الإطار الحاكم لأي تفكر أو اجتهاد وتجديد في هذه المعارف والعلوم.

ويلي هذه المعارف والعلوم الشرعية، في العلاقة بالدين – ومن ثم في نسبة الأسلمة – معارف العلوم الإنسانية والاجتماعية، لأن موضوعات هذه العلوم هي النفس الإنسانية، التي تتأثر تجاربها وخبراتها وفلسفاتها وأحلامها وأشواقها بعقائد الدين ومبادئه وقواعده وأحكامه وفلسفته في التشريع، فمناهج ومقاصد هذه العلوم هو النفس الإنسانية – على المستويين الفردي والاجتماعي – لأن هذه النفس الإنسانية قد اصطبغت وتأثرت وتلونت بعقائد المطلق الديني، ومعايير الحلال والحرام الشرعية، وصاغتها العادات والتقاليد والأعراف والمواريث المصطبغة أو المتأثرة بمنطلقات الدين، وأيضاً، لتنوع وتعقد عوالم النفس الإنسانية واختلاف تجاربها الاجتماعية والروحية والفنية، مما أدى إلى تلون وتمايز المعارف الإنسانية في ميادين هذه العلوم. فمهما بلغت ضوابط موضوعيتها تظل مستعصية على الحياد الذي تتميز به حقائق وقوانين ومعارف العلوم المادية.

ويلي هذه العلوم الإنسانية والاجتماعية، في العلاقة بالمطلق الديني، حقائق ومعارف وقوانين العلوم الطبيعية الدقيقة والمحايدة.

ففي هذا الحقل من العلوم والمعارف، التي تمثل المادة موضوعاتها، يكون الحياد كاملاً، وتتجسد الموضوعية في الحقائق والمعارف والقوانين المكتشفة نتيجة التجارب المعملية في هذه العلوم. فحقائق تجارب الطب والوراثة والفيزياء والكيمياء والفلك وطبقات الأرض، موضوعية وثابتة ثبات موضوعاتها المادية، وما التطور فيها والتراكم المعرفي والتجديدات والإضافات إلا ثمرات لنمو القدرات الإنسانية على سبر أغوارها وكشف أسرارها، وليست نابعة من اختلاف أو تمايز ديانات وعقائد وفلسفات وثقافات القائمين على

* مفكر وكاتب إسلامي رائد

البحث والتجريب في ميادين هذه العلوم، فلا أسلمة على الإطلاق في الحقائق والقوانين والمعارف المستخلصة من التجارب المعملية على مواد وموضوعات هذه العلوم الطبيعية. وإنما ترد الأسلمة - فقط - في توظيف هذه الحقائق المحايدة، والقوانين الموضوعية، فالتدين، على المستوى الفردي والاجتماعي يضبط توظيف هذه الحقائق بأخلاقيات الدين وقيمه، لتحقق مقاصده الشرعية، بينما الانفلات من الدين يوظفها فيما يخالف الأحكام الشرعية.

فحقائق تجارب زراعة العنب - مثلاً - لاتختلف باختلاف عقائد القائمين بزراعته، لكن هذه العقائد هي التي تحدد اختيارات وتضبط توظيف هذه الحقائق العلمية المحايدة، والحال كذلك مع حقائق وقوانين علوم الوراثة والجينات، فالبعض يشوه بها خلق الله، وقد يخلط بها الأنساب، بينما تضبط الأسلمة وظائفها وتطبيقاتها الشرعية الإلهية وفق أخلاقيات وقيم الإيمان الديني.

فالأسلمة في ميادين العلوم الطبيعية، لادخل لها في حقائق وقوانين هذه العلوم، ولكن العلاقة تتعلق بفلسفة توظيف الحقائق والقوانين المحايدة، وبمقاصد هذا التوظيف فقط لاغير.

فإسلامية المعرفة، أي العلاقة بين المطلق الديني والوضع الإلهي الثابت، وبين المعارف الإنسانية، قائمة دائماً وأبداً، لكن نسبتها وميادينها هي التي تتفاوت وتختلف في الدرجة باختلاف حقول وموضوعات المعارف الإنسانية.. فهي عالية جداً في العلوم الشرعية، وكبيرة في العلوم الإنسانية والاجتماعية، وواقفة في العلوم الطبيعية عند فلسفات تطبيقات حقائق وقوانين هذه العلوم.

وإذا كانت هذه هي حقيقة إسلامية المعارف والعلوم، وهي تبدو على هذا النحو من البداهة التي لايختلف فيها العقلاء، إلا أن غرابة استنكار حقيقة وجود علاقة ما بين المعتقد الديني والعلوم، تتزايد أكثر وأكثر عندما نرى أن المنكرين لوجود علاقة للإسلام بالمعارف والعلوم الإنسانية والاجتماعية لاينكرون وجود علاقات للفلسفات والمرجعيات الفكرية بذات المعارف والعلوم الإنسانية والاجتماعية!

فلا أحد ينكر وجود فلسفة مادية، أي وجود علاقات وثمرات وتأثيرات للنزعة المادية والمنهجية، والمعتقد المادي في تميز نسق فلسفي - أي علم اجتماعي - بالصيغة المادية، فَلِمَ إذن يكون الإنكار والاستنكار - فقط - للعلاقات والتأثيرات بين الإيمان والنزعة الإيمانية الإسلامية وبين الفلسفة على النحو الذي يثمر معرفة فلسفية إسلامية مؤمنة؟!

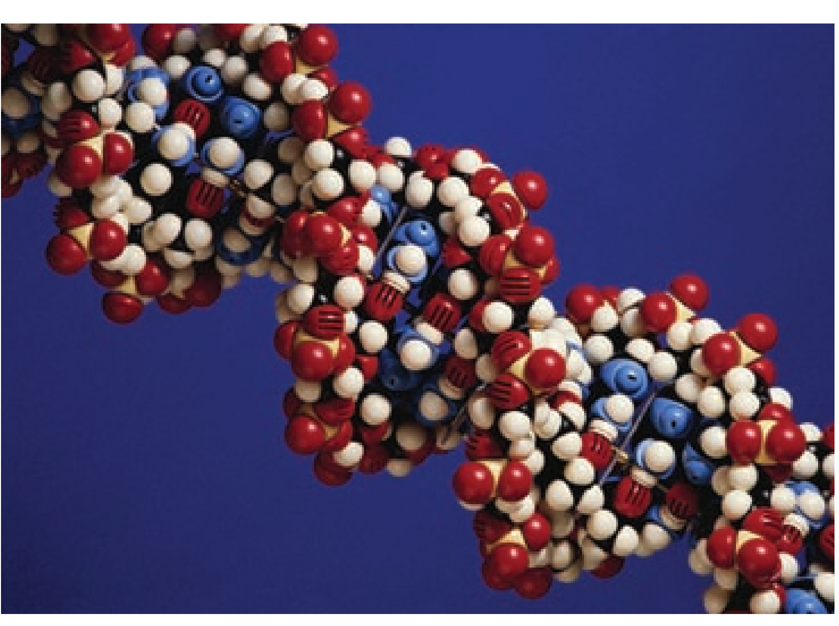
ولا أحد ينكر وجود فلسفة وضعية تقف بحقائق العلم عند الواقع وقوانينه ومعارفه، فَلِمَ إذن يكون الإنكار لتميز معرفي يحدثه العالم في المعارف إذا هو أضاف إلى آيات الكون آيات الوحي، وضم إلى معارف

الأسلمة في ميادين العلوم الطبيعية، لادخل لها في حقائق وقوانين هذه العلوم، ولكن العلاقة تتركز بفلسفة توظيف الحقائق والقوانين المحايدة، وبمقاصد هذا التوظيف فقط لاغير

تتجلى إسلامية المعارف والعلوم في العلوم الشرعية والتراث العلمي والحضاري الهائل الذي يمتلكه الدين الإسلامي

الواقع المادي نبأ السماء عن المغيبات التي لايستقل بإدراكها عقل الإنسان وتجاربه الحسية؟!

ولقد قبل الذين ينكرون ويستنكرون إسلامية المعرفة، وجود علم اجتماعي للاهوت التحرير[1] في أمريكا اللاتينية، بل حاول بعضهم استلهام وتوظيف هذا اللون من الفلسفة في العلوم الاجتماعية بواقعنا الإسلامي. فلم يستنكر هذا البعض الصيغة الإسلامية في علم الاجتماع الإسلامي؟! أم أن تأثير «لاهوت التحرير» في علم اجتماع أمريكا اللاتينية حلال، وتأثير الإسلام في علم الاجتماع عندنا حرام؟!



ضرورة استثمار قوانين علوم الوراثة والجينات بما يتفق وقيم الإيمان الديني

ولا أحد ينكر ولا يستنكر ما قرره «ماكس فيبر – Max Weber » (١٨٦٤-١٩٢٠م)[2] عن علاقة البروتستانتية بالرأسمالية – فلسفة واقتصاداً واجتماعاً. بل لقد غدا الذي قاله «ماكس فيبر» إحدى المسلمات عند الذين ينكرون ويستنكرون وجود علاقة بين الدين الإسلامي، وبين وجود فلسفة واجتماع واقتصاد مصطبغة بفلسفة الإسلام المميزة في علاقة المسلم – فرداً ومجتمعاً – بالثروات والأموال، وذلك انطلاقاً من نظرية الخلافة والاستخلاف الحاكمة للعلاقة بين المالك الحقيقي للثروة – وهو الله سبحانه وتعالى – وبين الخليفة والنائب والوكيل – وهو الإنسان مالك المنفعة – في الثروات والأموال.

إننا في الحقيقة، أمام تناقض في مواقف هذا النفر المنكرين لإسلامية المعرفة، يبلغ الغرابة والشذوذ ولاتفسير له إلا الجهل بالإسلام، إذا حسنت النوايا أو الكراهة لرؤية أي آثار للإسلام في حياة المجتمعات الإسلامية، ومعارف العلوم الإنسانية والاجتماعية في هذه المجتمعات.

وإذا كان «التغريب» هو الداء الذي صنع ويصنع هذا الشذوذ الغريب في موقف الذين ينكرون علاقة الإسلام بالمعارف والعلوم الإنسانية والاجتماعية، فمن المفيد أن نلجأ إلى «الصيدلية الغربية» لنأتي منها بعلاج لهذا المرض الذي بلغ بهم هذا الحال الشاذ والعجيب.

■ فالمستشرق الإيطالي «كارل نلينو-Carlo Nallino» (١٨٧٢-١٩٣٨م) كتب دراسة عن «محاولة المسلمين لإيجاد فلسفة شرقية» أثبت فيها أن للإسلام علاقة بالفلسفة الإسلامية، ميزت هذه الفلسفة – تبعاً لتميز الإسلام – عن الفلسفة اليونانية[3].. أي أن هناك – برأي هذا المستشرق – إسلامية للمعرفة الفلسفية في حضارة الإسلام ومعارف المسلمين.

■ والمستشرق الإنجليزي «ألفريد جيوم» يؤكد على أن الوسطية الإسلامية هي التي جعلت الإسلام يؤلف بين العقل والنقل، ويواخي بين الحكمة والشريعة، وقد اصطبغت الفلسفة الإسلامية بهذه الصبغة، فتميزت المعرفة الفلسفية الإسلامية بسمة التدين، وامتازت بها عن الفلسفات الأخرى التي انحازت إلى العقلانية المادية المجردة، أو إلى المثالية الباطنية الخالصة فأصبح للإسلام – كما يقول «جيوم» – «فلسفة منطقية تدرس بوصفها من صميم العقيدة الدينية»[4] فلقد أثمر الإسلام معرفة إسلامية في هذا العلم الاجتماعي – الفلسفة.

■ ويؤكد المستشرق الفرنسي «ديفيد دي سانتيلانا – David de Sautillana » (١٨٤٥-١٩٣١م)- وهو حجة في القانون الروماني وفي الفقه الإسلامي – على علاقة النزعة الدنيوية الغربية بالطابع النفعي الدنيوي للقانون الروماني، وعلى علاقة الوسطية الإسلامية، الجامعة بين الدنيا والآخرة، بتميز القانون وفقه المعاملات الإسلامي، عندما ارتبطت فيه كل مسألة قانونية بالضمير الديني والقصد الأخلاقي، أي أن هناك تأثيراً للإسلام في المعرفة القانونية، وهو علم اجتماعي، وإسلامية للمعرفة القانونية في حضارة الإسلام. ويؤكد «سانتيلانا» على هذه الحقيقة المعرفية، التي تميز بين القانون

الوسطية الإسلامية هي التي جعلت الإسلام يؤلف بين العقل والنقل، ويواخي بين الحكمة والشريعة، وقد اصطبغت الفلسفة الإسلامية بهذه الصبغة، فتميزت المعرفة الفلسفية الإسلامية بسمة التدين

الإسلامي وبين القانون الروماني، قائلاً: «إن معنى الفقه والقانون بالنسبة إلينا هو مجموعة من القوانين السائدة التي أقرها الشعب، إما مباشرة أو عن طريق ممثليه. وسلطات القانون مستمدة من الإرادة والإدراك وأخلاق البشر وعاداتهم. إلا أن التفسير الإسلامي للقانون هو خلاف ذلك، فالخضوع للقانون الإسلامي هو واجب اجتماعي وفرض ديني في الوقت نفسه، ومن ينتهك حرمته لا يأثم تجاه النظام الاجتماعي فقط، بل يقترف خطيئة دينية أيضاً، فالنظام القضائي والدين، هما شكلان لاثالث لهما لتلك الإرادة التي يستمد منها المجتمع الإسلامي وجوده وتعاليمه. فكل مسألة قانونية إنما هي مسألة ضمير، والصبغة الأخلاقية تسود القانون لتوحد بين القواعد القانونية والتعاليم الأخلاقية توحيداً تاماً، والأخلاق والآداب في كل مسألة، ترسم حدود القانون. فالشريعة الإسلامية شريعة دينية، تغاير أفكارنا أصلاً..»(٥).

فالدين الإسلامي وشريعته الإلهية قد صبغت القانون الإسلامي بصبغة ميَّزته عن القانون الروماني، أي أننا بإزاء إسلامية للمعرفة في هذا العلم الإجتماعي، علم القانون وفقه المعاملات، يؤكد عليها هذا المستشرق الكبير.

فهل تجدي هذه الشهادات الغربية لعلاج ذلك المرض، الذي جعل نفراً من مثقفينا يقبلون بوجود العلاقات بين مختلف الفلسفات والمرجعيات الفكرية، وبعضها ديانات، وبين المعارف والعلوم الإنسانية والاجتماعية، وينكرونها على الإسلام!

ولقد سبق لفيلسوفنا ابن سينا (٣٧٠-٤٢٨هـ / ٩٨٠-١٠٣٧م) عندما أراد معالجة ذات المرض الفكري، عند نفر من معاصريه الذين لايؤمنون إلا بما هو يوناني وكان يسميهم «العوام»، أن سلك نفس الطريق في علاج ذات المرض، مرض «العاميين من المتفلسفة المشغوفين بالمشائين(٦)، الظانين أن الله لم يهد إلا إياهم، ولم ينل رحمته سواهم»، فعرض نصوص الفلسفة المشائية اليونانية، ليقنع بها هؤلاء «العوام»، ثم نبّه على الفلسفة الإسلامية الحقة، المصطبغة والمتميزة بالإسلام وفلسفة المشرقيين، أو الحكمة الشرقية المتميزة عن الحكمة الغربية أي فلسفة اليونان(٧).

فهل يفيد هذا المنهج في العلاج؟! أم يظل هؤلاء الأشخاص على جمودهم الفكري، يتحدثون عن علم اجتماع غربي، أو مسيحي، أو وضعي، أو حتى لاهوتي تحريري.. إلخ.. مستثنين - فقط - علاقة الإسلام وتأثيراته في المعارف الإنسانية؟!

الخضوع للقانون الإسلامي هو واجب اجتماعي وفرض ديني في الوقت نفسه، ومن ينتهك حرمته لا يأثم تجاه النظام الاجتماعي فقط، بل يقترف خطيئة دينية أيضاً

خاتمة

هذه هي «إسلامية المعرفة» - أو التأصيل الإسلامي للمعرفة - والتي تعني في أدق وأبسط العبارات: العلاقة القائمة بين الدين الإسلامي، عندما يتدين به الإنسان، وبين المعارف والعلوم التي يبدعها هذا الإنسان المتدين بالإسلام.

فالعقيدة، أية عقيدة، وخاصة إذا كانت الإسلام الشامل لكامل منهاج هذه الحياة وما بعد هذه الحياة، تمثل «المنظار» الذي يرى المعتقد بها الكون والاجتماع من خلال عدساته. فتقوم علاقة ما بين هذه العقيدة وبين المعارف والعلوم التي يبدعها هذا الإنسان.

وهذه العلاقة (إسلامية المعرفة) لاتنفي «النسبية» عن المعرفة الإنسانية، ولكنها تنبه وتكشف وتبرز علاقة هذه المعرفة الإنسانية بالمرجعية الدينية المطلقة والمحيطة والكلية. فهي تنفي النسبية المطلقة عن المعرفة الإنسانية، في نفس الوقت الذي لاتزعم فيه لهذه المعرفة الإنسانية صفات الإطلاق فحتى معارف الإنسان الدينية هي نسبية، وجزء من المطلق الديني، والعلم الإلهي هو المتفرد بالعموم والشمول والإطلاق.

وهكذا تبلغ إسلامية المعرفة مبلغ الحقيقة، وتصل في البداهة إلى درجة المعلوم من الفطرة السوية بالضرورة، أي التي لايختلف فيها ولاعليها العقلاء. ■

الهوامش و المراجع

(١) تفسير اجتماعي للإنجيل، تبلور في أوساط عدد من القساوسة الكاثوليك في أمريكا اللاتينية.

(٢) عالم اجتماعي ألماني.. من أهم مؤلفاته (الأخلاق البروتستانية ... وروح الرأسمالية) سنة ١٩٠٥م و (المفاهيم الأساسية في علم الاجتماع) سنة ١٩٢١م.

(٣) ترجم هذه الدراسة ونشرها الدكتور عبدالرحمن بدوي، في كتاب (التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية) ص ٢٤٥-٢٩٦ . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥م.

(٤) جيوم (الفلسفة وعلم الكلام) بحث مترجم ومنشور بكتاب (تراث الإسلام) ص ٣٧٩ ، ترجمة جرجيس فتح الله، طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م.

(٥) سانتيلانا (القانون والمجتمع) بحث مترجم ومنشور بكتاب (تراث الإسلام) ص ٤٢٨،١١ ، ٤٣١.

(٦) المشاؤون هم أتباع مدرسة أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ق.م) سموا بذلك لأن التعليم في المدرسة كان يتم أثناء السير، ولقد تأسست هذه المدرسة في أثينا سنة ٣٣٥ق.م. واستمرت نحو ألف عام.

(٧) نلينو (محاولة المسلمين إيجاد فلسفة شرقية) ص ١٧٨-٢٨٢ . بحث منشور بكتاب (التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية).

* صور الموضوع: مطابع التريكي

ينبع الصناعية ... منشآت حديثة وشواطئ لازوردية تقتحم المستقبل

بقلم: عاطف القاضي*

تحظى مدينة ينبع الصناعية الساكنة على أرض الخير والعطاء بمقومات اقتصادية وسياحية جمة، نظراً لموقعها الاستراتيجي على الشريط الساحلي بين البحر الأحمر وسلسلة جبال السروات. إنها مدينة القرن الواحد والعشرين لعراقتها تاريخياً، وتألقها صناعياً، وإشراقة مستقبلها اقتصادياً. فهي تضم بين جنباتها أضخم المشروعات الإنشائية البتروكيميائية على الإطلاق في الشرق الأوسط.

مولدها

في عام ١٣٩٥هـ صدر المرسوم الملكي رقم ٩٥ بتأسيس الهيئة الملكية للجبيل وينبع، تحت رعاية القيادة الرشيدة ورؤيتها الطموحة، وتمت فكرة اختيار مدينتي الجبيل وينبع كموقعين لأحدث مدينتين صناعيتين متكاملتين في تاريخ المنطقة، بهدف تأسيس أضخم المشروعات البتروكيميائية وأسرعها نمواً في السوق العالمية.

وكان تشييدهما بالأمس حلماً أضحى اليوم واقعاً نشهده أمامنا، وننعم في ظل خيراته بعد اكتمال هندسة هذين الصرحين الصناعيين والاقتصاديين. وقد بدأت مسيرة الإنشاء في عهد الملك فيصل بن عبدالعزيز، يرحمه الله، الذي اعتمد آنذاك خطة التأسيس، ثم خلفه الملك خالد بن عبدالعزيز، يرحمه الله، الذي أرسى قواعد العمل بموجب قرار ملكي يقضي بتأسيس الهيئة الملكية والمباشرة في تنفيذ المشروعين.

وقد تم الافتتاح بحمد الله في يوم ٢٧ ذي الحجة ١٣٩٩هـ، حين استضافت مدينة ينبع الصناعية الملك خالد بن عبدالعزيز، يرحمه الله، الذي أزاح الستار عن اللوحة التذكارية إيذاناً بافتتاح المشروع.

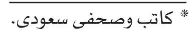
وبعد مضي ست سنوات من الافتتاح اكتملت معالم الصورة الرئيسة الأولى بإنشاء المنطقة السكنية «الهيئة الملكية» ثم تحركت عجلة خمس صناعات أساسية والعديد من المشروعات والمرافق المساندة.

جغرافيتها

تتميز مدينة ينبع الصناعية كقرينتها الجبيل الصناعية بأهميتها الاستراتيجية كميناء بديل لمنافذ تصدير الزيت على الساحل لوقوعها على ساحل البحر الأحمر، حيث تبعد حوالي ٣٥٠ كيلو متراً من مدينة جدة شمالاً. وتبلغ مساحتها نحو ١٨٥كم٢، خصص معظمها لتطوير المنشآت الصناعية. وتتمتع ينبع بعدد من الميزات الطبيعية التي منحها إياها الخالق عز وجل، بشكل جعلها تفوق غيرها من المدن، وامتيازها جغرافياً يتأتى من كونها تحتل موقعاً استراتيجياً بين سلسلة جبال الحجاز والبحر الأحمر، لذا تعد محطة نهائية لخطي أنابيب البترول الخام والغاز الطبيعي الذي يمتد من المنطقة الشرقية قاطعاً ١٢٠٠ كيلو متر تقريباً عبر الصحراء.

وقد أضاف مجسم الهيئة الملكية بُعداً جمالياً خاصاً لمدينة ينبع، وأصبح محط أنظار القادمين إليها، حيث يبدو في الليل وكأنه جوهرة نادرة تم اكتشافها للتو من داخل الشعب المرجانية على البحر الأحمر. وغدت ينبع مركز جذب لكثير من الزوار من شتى بقاع المملكة ليتمتعوا برؤية التصميم الهندسي الفريد لهذا المجسم، إنه حافز سياحي جديد يضاف إلى ميزات ينبع الأخرى حيث البحر والهدوء والاستجمام والساحل الجميل وبريق المصانع الأخاذ الذي يحيل ليل ينبع إلى نهار بالإضافة إلى المشاهد الطبيعية الخلابة.

وتمتد ينبع على الساحل بطول ٢٤ كيلو متراً، وقد اجتهدت الهيئة الملكية بأن تجعل منها مكاناً مكتظاً بالمتنزهات الوارفة الظلال، لتكتسب المدينة رونقاً



* كاتب وصحفي سعودي.

أحد المصانع العملاقة كما
يبدو في لقطة ليلية بينبع

تشهد ينبع تأسيس أضخم
المشروعات البتروكيميائية
وأسرعها نمواً في السوق
العالمية

تتمتع ينبع بعدد من الميزات الطبيعية التي منحها إياها الخالق عز وجل، بشكل جعلها تفوق غيرها من المدن، وامتيازها جغرافياً يتأتى من كونها تحتل موقعاً استراتيجياً بين سلسلة جبال الحجاز والبحر الأحمر



طلاب في طريقهم لممارسة جانب من هواياتهم الرياضية في أحد المرافق جيّدة التجهيز بمدينة ينبع



مدينة ينبع الصناعية في لقطة جوية، وتبدو كلية ينبع الصناعية في يمين الصورة

وجمالاً، والفضل أولاً وأخيراً لله ثم لمهندسيها المهرة الذين كرَّسوا فكرهم ونشاطهم لإخراج هذا النموذج الحضاري إلى حيز الوجود.

مركز صناعي عالمي

يتمثل النشاط الاقتصادي بمدينة ينبع الصناعية في الصناعات الأساسية، والصناعات الثانوية الخفيفة والمساندة.

ومن الصناعات الأساسية القائمة بمدينة ينبع الصناعية، محطة الزيت الخام، ومعمل أرامكو السعودية لتجزئة سوائل الغاز الطبيعي، وشركة مصفاة أرامكو السعودية موبيل المحدودة (سامرف)، وشركة ينبع السعودية للبتروكيماويات (ينبت)، ومصفاة أرامكو السعودية المحلية بينبع، وهذه المنشآت هي عماد الحركة الاقتصادية فيها.

وقد بلغ إجمالي تكلفة الصناعات الأساسية نحو ٣٩٦٠٠ مليون ريال، إضافة إلى أن هناك ثلاث صناعات أساسية تحت الإنشاء تقدر تكلفتها بنحو ١٠٧٠٠ مليون ريال.

وتضم المدينة بين جنباتها تسع صناعات ثانوية تستخدم منتجات الصناعات الأساسية كلقيم صناعي، وتقوم بتصنيع منتجات وسيطة للبيع أو تدخل في تصنيع منتجات إضافية مما يضاعف من القيمة المضافة لمنتجات الصناعات الأساسية. وتبلغ التكلفة الإجمالية لهذه الصناعات الثانوية بمدينة ينبع الصناعية نحو ٢٧٧٤ مليون ريال.

وهناك أربع صناعات تحت الإنشاء بتكلفة ٢١١٠ ملايين ريال، بالإضافة إلى مصنعين تحت التصميم بتكلفة ٩٥٥ مليون ريال.

كما أولت الهيئة الملكية بينبع اهتماماً بالغاً بالصناعات الخفيفة والمساندة، لذلك فقد تم تخصيص ٣١١ هكتاراً من المساحة الإجمالية للمنطقة الصناعية، وتتمثل تلك الصناعات في نحو ٣٢ صناعة خفيفة ومساندة، وهناك أربع صناعات تحت الإنشاء بتكلفة تقدر بنحو ١٤٩ مليون ريال، إضافة إلى مصنعين تحت التصميم بتكلفة ١٤٢ مليون ريال.

وأعدت الهيئة برنامجاً خاصاً لتأجير الأراضي بأسعار رمزية للمستثمرين حيث يبلغ سعر تأجير المتر المربع ما بين ريال واحد إلى عشرة ريالات لأراضي المنطقة السكنية والتجارية، أما بالنسبة لسعر تأجير الأراضي في المنطقة الصناعية فيبلغ ٨ هللات للمتر المربع سنوياً.

وتستقبل مدينة ينبع الصناعية المواد الخام عبر خطوط الأنابيب الممتدة من المنطقة الشرقية بالمملكة ليتم تصنيعها وتصديرها كمنتجات بتروكيميائية إلى الأسواق العالمية، إضافة إلى قيام العديد من الصناعات الثانوية الخفيفة، والمساندة التي تعتمد على الصناعات الأساسية بمدينة ينبع الصناعية التي تقوم بإنتاج كميات متنوعة من اللقيم الصناعي على شكل مادة خام يمكن استغلالها في العديد من الصناعات مثل: مادة البروبلين والبيوتين والنفثا وجميعها تعد في حد ذاتها مشروعات ذات جدوى اقتصادية عالية.



تحتل تنمية قدرات ومهارات العناصر الشابة، أولوية قصوى في مدينة ينبع الصناعية

التعليم

سعت القيادة الرشيدة على مدى الخمسة عشر عاماً الماضية لإنشاء مدارس حديثة لتربية جيل متطور في ينبع، ويشهد القطاع التعليمي بمدينة ينبع الصناعية تقدماً ملحوظاً، مواكباً لنمو المنطقة السكنية. كما شاركت الإدارة العامة لمشروع الهيئة الملكية بجهود مماثلة تتمثل في إنشاء كلية ينبع الصناعية. وهذه الحركة التعليمية تزحف نحو آفاق جديدة، تبشر بمستقبل زاهر وجيل مسلح علمياً. فهناك المرافق التعليمية التي اكتسبت سمعة طيبة بفضل المستوى الرفيع، والنجاح المتزايد الذي يتحقق في رياض الأطفال الرسمية والخاصة والمدارس الإبتدائية والمتوسطة والثانوية، ومدرسة دولية لتتيح فرصة كبيرة للأجانب، كما تتوفر فرصة لتعليم الكبار لمن فاتهم قطار التعليم بالأمس.

تتميز ينبع بجمالها الطبيعي الأخّاذ وشواطئها الرملية ومياهها الدافئة وحياتها الفطرية الغنية

تستقبل مدينة ينبع الصناعية المواد الخام عبر خطوط الأنابيب الممتدة من المنطقة الشرقية بالمملكة ليتم تصنيعها وتصديرها كمنتجات بتروكيماوية إلى الأسواق العالمية، إضافة إلى قيام العديد من الصناعات الثانوية الخفيفة، والمساندة التي تعتمد على منتجات الصناعات الأساس

وقد شمل التعليم أيضاً إنشاء معهد لتنمية القوى البشرية، وتم تطويره ليصبح كلية تقنية تشمل كافة التخصصات التي تشمل برامج التعليم المهني والصناعي التي تقوم بتوفير البرامج اللازمة في جميع المجالات التي يتطلبها تشغيل المدينة الصناعية مستقبلاً.

الاستثمار التجاري السكني

نجحت ينبع في أن تصبح قاعدة اقتصادية صلبة، وهي الآن بمثابة همزة وصل بين المستثمرين في المجالات الصناعية والتجارية والسكنية، وتعد مركزاً للنشاط الاستثماري في كافة المجالات. وقد تم استثمار قرابة خمسين بليون ريال سعودي في المجال الصناعي وحده ويماثل ذلك تقريباً ما أنفقته الهيئة الملكية لتجهيز المدينة بأحدث ما توصلت إليه التقنية المعاصرة في مجال البنية الأساسية، أما الصناعات الجديدة المخطط إقامتها في مدينة ينبع الصناعية فإن استثماراتها تقدر بحوالي عشرين بليون ريال سعودي.

إن المستثمرين في المجالين التجاري والسكني قد نهجوا نهج المستثمرين الصناعيين، وقاموا بتوفير مختلف أنواع وأشكال السلع والخدمات لسكان المدينة. كما أن مناخ الأعمال ووفرة الفرص الاستثمارية في مدينة ينبع الصناعية هي من الحوافز المشجعة والداعمة لاستمرار الازدهار الاقتصادي في المدينة والمنطقة بشكل عام.

السياحة الترفيهية

تتميز ينبع بجمالها الطبيعي الأخاذ وشواطئها الرملية ومياهها الدافئة وحياتها الفطرية الغنية، لذا أولت الهيئة الملكية اهتماماً بالغاً بهذه الناحية كما أولت البيئة الاجتماعية للفرد والأسرة مكانة قصوى بما يفي باحتياجاتهم الأساسية والكمالية، كتوفير الهدوء والراحة للسكان وتلبية متطلباتهم من أسواق ومحال تجارية متعددة وأندية رياضية واجتماعية متنوعة الأنشطة.

وبادرت الهيئة الملكية بطرح فرص الاستثمار السياحي والترفيهي، وأثمرت الدعوة في جذب رجال الأعمال، وتشكيل إدارة لتشغيل وصيانة هذه المرافق بعقود امتياز، وأصبحت المدينة الفتية تضم تشكيلة واسعة من المرافق الترفيهية الرياضية والترويحية للتمتع بقضاء أوقات الفراغ ومزاولة الهوايات الرياضية المختلفة مثل: كرة القدم والتنس والاسكواش والجمباز والسباحة وغيرها.

المرافق العامة والرعاية الصحية

تتوافر في ينبع المرافق والمحال التجارية والتسويقية التي تفي بحاجيات السكان من البضائع المعروضة والسلع الاستهلاكية، وهي تنتشر في الأحياء السكنية المختلفة. كما تحظى المساجد بعناية فائقة للمحافظة على الطابع الإسلامي لهذه المدينة، وتتعدد أنماط وأشكال هذه



إحدى الرقصات الفولكلورية التي تشتهر بها منطقة ينبع



تزخر مدينة ينبع بعدد من المرافق الترفيهية التي تلقى إقبالاً شديداً من الأطفال المقيمين والزائرين

المساجد التي تتميز بجمالها المعماري الفريد، وبمواقعها التي يسهل الوصول إليها من كل مكان. وهناك أيضاً مرافق ثقافية تشمل مكتبات عامة، ومتحفاً، وقاعات للاحتفالات وإلقاء المحاضرات والمعارض والأنشطة الفنية.

أما قطاع الرعاية الصحية في ينبع فيتكون من مجموعة متكاملة من الخدمات الصحية الوقائية والعلاجية من بينها مراكز صحية منتشرة بالمواقع السكنية المناسبة، ويأتي مركز الهيئة الملكية الطبي في طليعة تلك المرافق، حيث يضم مستشفى بسعة ٣٤٢ سريراً، يستقبل المحولين من شتى العيادات الأخرى، ويقدم خدمات طبية تخصصية للمرضى المراجعين والمنومين.

ويتضمن برنامج الصحة العامة تغطية مجالات عامة تشمل الصحة والبيئة المهنية والصناعية ومكافحة الأمراض الوبائية، علاوة على برنامج التوعية الصحية.

الزيارات الرسمية

- زار الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود، يرحمه الله، مدينة ينبع في عام ١٣٦٤هـ، والتقى بالملك فاروق ملك مصر آنذاك حيث بحثا في تأسيس جامعة الدول العربية، وكان ذلك في منطقة خليج رضوى بينبع، ثم التقى جلالة الملك عبدالعزيز بأعيان وأهالي ينبع يتقدمهم أمير ينبع حمد العيسى.
- زار الملك سعود بن عبدالعزيز آل سعود ينبع عام ١٣٧٥هـ والتقى بالأعيان والأهالي.
- بعد أن صدر المرسوم الملكي القاضي بتأسيس الهيئة الملكية، تفضل جلالة الملك خالد، يرحمه الله، في ١٣٩٩/١٢/٢٧هـ بإزاحة الستار عن النصب التذكاري إيذاناً بافتتاح مشروع الهيئة الملكية بينبع الصناعية.
- في شهر ربيع الأول لعام ١٤٠٣هـ تفضل خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز بافتتاح مصفاة ينبع المحلية. كما تفضل، يحفظه الله، في السابع من محرم من عام ١٤٠٥هـ بافتتاح مشروع التبريد بمياه البحر، وميناء الملك فهد الصناعي ومصفاة سامرف.
- وفي شهر محرم من عام ١٤٠٥هـ قام صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز، ولي العهد نائب رئيس مجلس الوزراء، ورئيس الحرس الوطني بزيارة تفقدية لمدينة ينبع الصناعية. كما قام، يحفظه الله، بزيارة تفقدية أخرى لمدينة ينبع الصناعية واكبها افتتاح مشروعات الهيئة الملكية بينبع وذلك في ١٧ رجب من عام ١٤٢٠هـ.
- وفي شهر ذي القعدة من عام ١٤١٩هـ تفضل صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبدالعزيز، النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء، وزير الدفاع والطيران، والمفتش العام، بافتتاح مصنعي المركبات العطرية وحمض الترفثاليك بمجمع ابن رشد.

يتكون قطاع الرعاية الصحية في ينبع من مجموعة متكاملة من الخدمات الصحية الوقائية والعلاجية من بينها مراكز صحية منتشرة بالمواقع السكنية، ويأتي مركز الهيئة الملكية الطبي في طليعة تلك المرافق

خاتمة

يوماً بعد يوم تتزايد مكانة ينبع الاقتصادية المهمة، في بلادنا الحبيبة، وتشق عنان السماء فيها مصانع حديثة، حاملة النماء والازدهار لأبناء المنطقة، ومضيفة عنصراً جديداً من عناصر القوة والمنعة لاقتصاد المملكة، خاصة ما يتعلق منها بالاستثمارات التقنية الحديثة لتحقيق القيمة المضافة من المواد الهيدروكربونية إلى أقصى حد ممكن، ويتزامن ذلك مع استثمار العناصر الطبيعية الفريدة التي تتمتع بها المنطقة من بحار لازوردية وشواطئ ساحرة ضمن جهد متواصل ومشاركة فاعلة في بناء الصرح الحضاري الشامل الذي تشهده المملكة، وهي تلج الألفية الثالثة. ■

---

* صور الموضوع: أرامكو السعودية

٨٠٠ مليون نسمة يواجهون مخا

قال الله تعالى في محكم كتابه العزيز: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٤].

الإنسان الذي استخلفه الله في الأرض لعمارتها هو نفسه الذي يشكل ويطور البيئة المحيطة به التي تعطيه مقومات استمرارية حياته، وتمنحه القدرة لتحقيق النمو الفكري والخلقي والاجتماعي والروحي.

فأنشطة البشر المعيشية والتنموية وسلوكهم تجاه بيئتهم البشرية، هي العامل الحاسم لحدوث أو تجنب حدوث التصحر. فالعالم يشهد في كل مكان تقريباً تدهوراً للتربة، ولكن هذا التدهور الذي يدعى بالتصحر يحدث في أراضي المناطق الجافة وشبه الجافة والجافة شبه الرطبة والتي

* إخصائي بمعهد البحوث بجامعة الملك فهد للبترول والمعادن.

طر التصحر والجفاف في العالم

بقلم: محمد غياث الأشرف*

تشكل ٤٧٪ من المساحة الكلية للأرض في العالم.

وينجم عن التصحر تفاعلات تبادلية متعددة بين عوامل فيزيائية وأحيائية وسياسية واجتماعية وثقافية واقتصادية، ومن هذا المنطلق فإن التصحر لا يعني وجود الصحارى الممتدة داخل أراضينا، ولكنه يعني تدمير الإمكانات الحيوية للأرض المنتجة مما يؤدي إلى ظهور ظروف البيئة الصحراوية على هذه الأرض.

وقد اعتمد في قمة ريودي جانيرو المنعقدة بالبرازيل عام ١٩٩٢م تعريف موحد للتصحر يوجزه بأنه تدهور الأرض في المناطق الجافة وشبه الجافة، والجافة شبه الرطبة، والناجم عن عوامل متنوعة بما فيها التذبذب المناخي والأنشطة البشرية.

تدهور التربة قد يؤثر على ٨٠٠ مليون نسمة منهم ١٥٠ مليون مواطن عربي، إذا امتدت هذه المشكلة وشملت كافة المناطق المهددة بالتصحر في الدول العربية

تدهور التربة ظاهرة كونية

تعد مشكلة تدهور التربة مشكلة عالمية بشكل عام، ومشكلة ملحة للدول الآخذة بالنمو بشكل خاص، ومع التعاظم المطرد لعدد السكان والذين دخلوا عتبة القرن العشرين بتعداد تجاوز الستة مليارات نسمة، فإنه من المتوقع مع مرور الوقت، تعاظم مشكلة تدهور التربة وتصحرها ما لم تتكاثف الجهود لإيقاف هذه الظاهرة وإعادة المناطق المتأثرة إلى ما كانت عليه من إنتاجية سابقة.

وقد بينت الأرقام بأن تدهور التربة قد يؤثر على ٨٠٠ مليون نسمة منهم ١٥٠ مليون مواطن عربي، إذا امتدت هذه المشكلة وشملت كافة المناطق المهددة بالتصحر في الدول العربية.

ويعاني حالياً ٧٠ مليون شخص من آثار التصحر في العالم خاصة في إفريقيا. ويقدر المتخصصون أن ١٥٪ من مساحة اليابسة قد تدهورت بدرجات متفاوتة بسبب الأنشطة البشرية. وقد تدهور ما نسبته ٥٦٪ من هذه المساحة بفعل المياه، و٢٨٪ بفعل الرياح، و١٢٪ بفعل الانضغاط والإنزلاق وهبوط السطح، و٤٪ بفعل عوامل أخرى.

والأسباب الرئيسة لهذا التدهور على مستوى العالم كانت حسب النسب المئوية التالية:

الإفراط في الرعي ٣٥٪، والأنشطة الزراعية ٢٨٪، والاستغلال الكثيف والمفرط للأرض ٦٪، والأنشطة الصناعية ١٪. ولقد تردى بالفعل نحو ٧٠٪ من إجمالي مساحة الأراضي الجافة المستخدمة في الزراعة والبالغة ٥,٢ مليار هكتار في شتى أنحاء العالم.

وهكذا يلحق التصحر الضرر بنحو ٣٠٪ من إجمالي مساحة الأرض في العالم، وهنالك ١١٠ بلدان تتعرض أراضيها الجافة لخطر التصحر.

إن التكلفة البشرية للتصحر عالية، حيث تتعرض للخطر مصادر رزق الملايين من سكان هذا الكوكب، ويواجه ما لا يقل عن ١٣٥ مليون نسمة خطر النزوح من أراضيهم، وكان للتصحر دور في اندلاع عدد من النزاعات المسلحة التي دارت رحاها في دول عانت أراضيها من موجات الجفاف الطويل، كما يسهم التصحر في زعزعة الاستقرار السياسي وتفاقم مشكلات الجوع والانهيار الاجتماعي والأخلاقي، ويتسبب في إنفاق مبالغ طائلة على مشروعات الإغاثة.

ويؤدي تدهور التربة وتصحرها إلى تفاقم أزمات بيئية مثل تنامي ظاهرة التسخين الحراري وما قد ينجم عنها من تذبذب وتغير مناخي، ونقص وفقدان للتنوع البيولوجي. وتلعب التداخلات السياسية للدول الكبرى من أجل نشر مناطق النفوذ وما تولده من حروب أهلية دوراً فاعلاً في خلق مشكلات اللاجئين البيئيين وما يصاحبها من ضغوط على البيئة المحلية والإقليمية وهي ضغوط تسهم بشكل فعال في تدهور التربة وتصحرها.

ومما يجدر ذكره أن المساحة الكلية للأراضي في العالم تقدر بحوالي ١٣٣٨٢ مليون هكتار، يزرع منها ما نسبته ١١٪ أي ما يعادل ١٤٧٥ مليون هكتار، وتستخدم ٢٤٪ من أراضي اليابسة كمراعي دائمة، وتؤلف الغابات والأحراش ما نسبته ٣١٪ أما الأراضي غير المستخدمة



يتسبب الجفاف في تشقق التربة الزراعية، واستنفاد المواد العضوية فيها



فتبلغ ٣٤٪. ويمكن لهذه المناطق الأخيرة أن تعطى إنتاجاً مناسباً لو أديرت بشكل جيد.

وتقدر مساحة الأراضي القابلة للزراعة على مستوى العالم بحوالي ٣٢٠٠ مليون هكتار وهي مساحة تزيد بمقدار الضعف عما يزرع حالياً. ويتم بالوقت الحاضر زراعة ٧٠٪ من الأراضي القابلة للزراعة في الدول المتقدمة، و٣٦٪ من الأراضي القابلة للزراعة في الدول النامية.

تدهور التربة وتصحرها في العالم العربي

تقدر الدراسات بأن تدهور التربة في العالم العربي الذي تجاوز تعداد سكانه ٢٨٠ مليون نسمة، ولديه أراض تبلغ مساحتها ١٣٧٨ مليون هكتار، قد يؤثر على ١٥٠ مليون مواطن إذا اتسعت هذه المشكلة وشملت كافة المناطق المهددة بالتصحر في الدول العربية التي تقع أغلب أراضيها في المنطقة الجافة وشبه الجافة، والتي تبلغ مساحة الأراضي المستغلة فيها بالزراعة حوالي ٥٠ مليون هكتار أي حوالي ٤٪، ومساحة المراعي ٢٦٥ مليون هكتار أي حوالي ٢١٪. بينما تغطي الأشجار والأحراش ٦٪ من مساحة الوطن العربي.

وعلى وجه التقريب فإن ٤٠٪ من أراضي الوطن العربي المروية، و ٧٥٪ من أراضي الوطن العربي البعلية، و٨٠٪ من مراعي الوطن العربي تعاني من أخطار تدهور التربة وتصحرها. علماً بأن ٧٠٪ من مساحة الوطن العربي تتلقى ١٠٠ ملم من المطر سنوياً، وتتلقى ٢٠٪ من مساحته ما بين ١٠٠ إلى ٤٠٠ ملم سنوياً، وفي أحسن الأحوال تتلقى ١٠٪ من مساحته أكثر من ٤٠٠ ملم من المطر سنوياً. أي أن ٩٠٪ من مساحة الوطن العربي ذو بيئة طبيعية هشة وحساسة وعرضة لأخطار التصحر.

إن المناخ ومكوناته من حرارة ورطوبة ورياح ومعدل أمطار وتوزعها المكاني والزماني وارتفاع معدل التبخر والنتح وقلة توافر مصادر المياه هي من العوامل المساعدة على حدوث التصحر بفعل الأنشطة البشرية غير القابلة للاستمرار بيئياً وتنموياً.

ففي أحد البوادي العربية على سبيل المثال، هطل (٦٠) مليمتراً في يوم واحد، منها (٥٠) مليمتراً في ثلاث ساعات فقط!!

وهذه العناصر المناخية الأساس تتواجد بشكل سلبي في منطقتنا العربية مما يستوجب إدارة أراضي هذا الوطن بشكل علمي وحكيم انطلاقاً من مفهوم التنمية القابلة للاستمرار أو التخطيط التنموي البيئي المتكامل، لأن إنتاجية الأرض تعتمد أساساً على قدرة التربة على الاستجابة للاستفادة منها.

إن التربة ليست كتلة جامدة، وإنما هي مجتمع بيئي متكامل ومتوازن بدقة يشمل عناصر وجزئيات معدنية ومواد عضوية وكائنات حية متفاوتة الأحجام ضمن توازن حيوي، فالتربة تكونت علىمدى فترات زمنية طويلة تتراوح ما بين آلاف وملايين السنين.

ولكن النشاط البشري الكثيف والسيئ التوجيه يمكن أن يدمر التربة في غضون سنوات قليلة بحيث يستحيل

يؤدي تدهور التربة إلى بروز أزمات مناخية عديدة كظاهرة التسخين الحراري التي لها آثار مدمرة على حياة الملايين من سكان المعمورة

تلعب التداخلات السياسية للدول الكبرى من أجل نشر مناطق النفوذ وما تولده من حروب أهلية، دوراً فاعلاً في خلق مشكلات اللاجئين البيئيين، وما يصاحبها من ضغوط على البيئتين المحلية والإقليمية



توفير الأمن الغذائي للسكان هو من ضمن أهداف اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة التصحر

تقريباً إعادتها إلى حالتها الأولى، فليست هناك طريقة عملية واقتصادية للاستعاضة عن التربة إذا فقدت، فسماكة ٢,٥سم من التربة السطحية يحتاج تكونها عن طريق تجوية الصخور ما بين ١٠٠ إلى ٣٠٠ سنة حسب نوع التربة والصخرة الأم بينما فقدان نفس السماكة لايحتاج إلا إلى أقل من عشر سنوات على الأكثر!!

استعراض اتفاقية مكافحة التصحر

ألح المجتمع الدولي في مؤتمر قمة الأرض، والذي عقد في ريو دي جانيرو عام ١٩٩٢م، على وضع معاهدة للتصدي للأزمة المادية والبشرية التي يسببها التصحر. وبعد مفاوضات شاقة تم التوصل في باريس عام ١٩٩٤م لأول اتفاقية دولية ملزمة قانونياً لمكافحة التصحر.

وتضع الاتفاقية أساساً جديداً، وتستهل نهجاً للانطلاق من القاعدة يبدأ بالسكان المتأثرين فعلاً بالأزمة، وتستعيض عن مفهوم تقديم المساعدة إلى مفهوم الشراكة، وهي وثيقة مبتكرة تضع أساساً جديداً في القانون البيئي الدولي، وقد صممت بحيث تشكل علاقة تعامل جديدة بين الحكومات والمجتمع الدولي ومنفذي الأنشطة والسكان المحليين، وتشدد على الشراكة أكثر من تقديم المعونة.

ويتلخص جوهر الاتفاقية بالتزام البلدان المتأثرة بالتصحر بإعداد وتنفيذ برامج عمل لمنع تدهور الأراضي، وينصب التركيز على المشاركة الشعبية، ومساعدة السكان المحليين على مساعدة أنفسهم من أجل منع تدهور الأراضي، ويتلاءم تنفيذ الاتفاقية تبعاً للاحتياجات الإقليمية المحددة في إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية ومنطقة الكاريبي وشمال البحر الأبيض المتوسط. وسيكون التنسيق أحد مفاتيح النجاح، فالاتفاقية توفر إطاراً تستطيع فيه البلدان النامية والبلدان المانحة والمؤسسات الحكومية الدولية، والمنظمات غير الحكومية الالتقاء معاً في شراكة جديدة من أجل التقدم. ونظراً لكون ضحايا تدهور التربة وتصحرها، هم من بين أكثر سكان العالم فقراً، غدا من الضروري توعية الناس وتثقيفهم لمكافحة مخاطر التصحر.

وتنطوي الاتفاقية على إمكانية تقليل درجة تأثر السكان المحليين المتضررين عن طريق تأمين سلامة بيئتهم وزيادة الأمن الغذائي، وتوافر فرص جديدة لأساليب العيش.

ومن شأن نجاح تنفيذ الاتفاقية، أن يسهم في تحسين ظروف المعيشة وتخفيف حدة الفقر، إلى جانب المساعدة في تخفيف المشكلات ذات الصلة بالتصحر مثل الهجرة وانقراض الأنواع النباتية والحيوانية، وتغير المناخ، والحاجة إلى تقديم المساعدات الطارئة والإغاثة للسكان الذين يتعرضون لأزمات الجفاف وتدهور التربة.

ففي الماضي كان سكان الأراضي الجافة يُلامون كثيراً عندما يدمرون بيئتهم بأنفسهم بسبب الإفراط في استغلال أراضيهم وقطع أشجارها، ويعود ذلك لأسباب أهمها الفقر الذي يدفع الفقراء إلى استخلاص أكثر ما يمكن استخلاصه من الأرض لإطعام أسرهم على المدى القريب، مما يجعلهم يسدون باب مستقبلهم بأيديهم. وفقراء الأراضي الجافة - غالباً - لا تكون لهم كلمة مسموعة في تقرير مصيرهم، فهم بلا نفوذ يذكر في السياسة الوطنية أو المحلية، وهم من أقل الناس حضوراً في العالم سواء اقتصادياً أم سياسياً أم جغرافياً، وعادة ما تكون المرأة الأم الأشد تضرراً بسبب التصحر سواء بسبب الطقس أم بتقلبات اقتصاد بلادها.

ومع تزايد عدد السكان وزيادة الطلب على الإنتاج الزراعي تنهار النظم التقليدية لإدارة الأراضي، ويتفاقم هذا الوضع نتيجة لاتباع ممارسات جديدة، والتي غالباً ما تتمثل في الزراعة الأحادية المحصول، وهكذا تتعرض

مساحات أكبر فأكبر من الأراضي الجديدة لضغوط الاستخدام المفرط. ويضطر فقراء المزارعين والرعاة إلى اللجوء إلى الأراضي الهامشية الضعيفة الإنتاج لاستثمارها، ويكون استثماراً قصير المدى لأن هذه الأراضي الهامشية ذات قدرة إنتاجية متدنية وتحتاج إلى فترة طويلة من الإراحة عقب كل محصول.

مشاركة السكان المحليين

لقد كان المخططون للتنمية في الماضي ينزعون غالباً إلى تجاهل أهالي الأراضي الجافة، لكنهم يدركون الآن بأن هؤلاء الفقراء يعرفون أكثر من سواهم طبيعة وقدرات النظم البيئية السريعة التدهور، والتي طالما انتزعوا لأنفسهم منها مصادر رزقهم، لذا يجب أن يكون هؤلاء السكان المحليون الفقراء هم ركيزة خطط مكافحة التصحر.

وهذا ما أقرته الاتفاقية وما أكدت عليه قمة «كوبنهاجن» المنعقدة في عام ١٩٩٥م للتنمية الاجتماعية التي أقرت بأنه: «يتعين على أن تكون التنمية موجهة نحو الإنسان، إذا أريد لها أن تكون تنمية قابلة للاستمرار». وتنادي اتفاقية التصحر العالمية بوجوب إشراك السكان المحليين إشراكاً تاماً في كيفية التصدي لمشكلة التصحر، وعلى وجوب معالجة مشكلة الفقر الذي يعانون منه، أي الانطلاق من القاعدة إلى القمة.

وهكذا تقدم الاتفاقية في آن واحد الأمل لوقف التصحر وصده، والإمكانية لتحسين معيشة بعض من أشد سكان كوكب الأرض فقراً. وتعمل الاتفاقية على زيادة اعتزازهم بأنفسهم وتشجيعهم على البقاء في أراضيهم، وهي تقدم لنا أفضل وآخر فرصة لمعالجة الأزمات المتعددة والمتشابكة التي يسببها التصحر.

جهود الأمم المتحدة لمكافحة التصحر

يرجع أول جهد دولي محدد لمكافحة التصحر إلى نهاية موجة الجفاف والجوع الهائلة التي اجتاحت منطقة الساحل في إفريقيا في الفترة من ١٩٦٨ إلى١٩٧٤م والتي هلك فيها ما يزيد عن ٢٠٠٠٠ شخص ونفقت خلالها ملايين الحيوانات.

ولقد تصدت الأمم المتحدة لمسألة التصحر لأول مرة في مؤتمر الأمم المتحدة بشأن التصحر، الذي عقد في نيروبي عام ١٩٧٧م، والذي وضع القضية على جدول الأعمال الدولي كمشكلة اقتصادية واجتماعية وبيئية عالمية النطاق، وأصدر المؤتمر خطة عمل لمكافحة التصحر، ضمت مجموعة من الخطوط التوجيهية والتوصيات بهدف مساعدة البلدان المتأثرة لمواجهة المشكلة، ولكن تنفيذها العملي كان أقل من التوقعات لأسباب عدة من جانب الدول المتأثرة بالجفاف، ومن جانب الدول المانحة للمساعدات، والأهم من ذلك أن البعد الاجتماعي للتصحر لم يحظ سوى باهتمام ضئيل في اتفاقية عام ١٩٧٧م.

وقد أصرت الدول النامية وفي مقدمتها البلدان الإفريقية أثناء الأعمال التحضيرية لقمة الأرض عام ١٩٩٢م على وجوب إيلاء اهتمام صريح وواضح بالتصحر. وفي نهاية المطاف وبعد مساومات عنيفة اتفق زعماء العالم في جدول أعمال القرن الحادي والعشرين على مناشدة الجمعية العامة للأمم المتحدة لإنشاء لجنة

كان المخططون للتنمية في الماضي ينزعون غالباً إلى تجاهل أهالي الأراضي الجافة، لكنهم يدركون الآن بأن هؤلاء الفقراء يعرفون أكثر من سواهم طبيعة وقدرات النظم البيئية السريعة التأثر بتدهور التربة



استخدام وسائل الري الحديثة، يسهم في المحافظة على الثروة المائية الجوفية المحدودة في المناطق الجافة

تبرز هذه الاتفاقية تصميم البلدان المتقدمة والنامية على ضرورة إقامة تحالف عالمي من أجل التصدي للتصحر، وهي تختلف عما سبقها من جهود لمكافحة الأزمة لأنها اتفاقية ملزمة قانونياً وستلتزم البلدان التي تنضم إليها بتنفيذها

تفاوض دولية لإعداد وثيقة ملزمة قانوناً بحلول شهر حزيران ١٩٩٤م.

وبعد مفاوضات مضنية خلال خمس دورات عقدت في نيروبي وجنيف ونيويورك وباريس، تم اعتماد اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة التصحر في البلدان التي تعاني من الجفاف الشديد، أو من التصحر خاصة في إفريقيا، واعتُمدت الاتفاقية للتوقيع في باريس في عام ١٩٩٤م، وقد وقعتها غالبية الدول، وتم إقرارها والبدء بسريان مفعولها في مؤتمر روما في عام ١٩٩٧م.

وتبرز هذه الاتفاقية تصميم البلدان المتقدمة والنامية على ضرورة إقامة تحالف عالمي من أجل التصدي للتصحر، وهي تختلف عما سبقها من جهود لمكافحة الأزمة لأنها اتفاقية ملزمة قانونياً وستلتزم البلدان التي تنضم إليها بتنفيذها.

وعلى خلاف بعض المعاهدات الدولية الأخرى المتعلقة بالبيئة، تتضمن اتفاقية مكافحة التصحر التزامات وطنية محددة باتخاذ إجراءات عملية ولاسيما على الصعيد المحلي، حيث يقع عبء مكافحة التصحر بالدرجة الأولى على عاتق الدول المتأثرة به، وتؤكد الاتفاقية بقوة على إنشاء الآليات المطلوبة لتنفيذها ورصد التقدم المحرز وطنياً.

ويعد استكمال اتفاقية التصحر أحد أهم الإنجازات التي تحققت حتى اليوم في متابعة أهداف قمة الأرض، إذ تحمل الاتفاقية روح قمة «ريودي جانيرو» بكل معنى الكلمة، يليها التوقيع على اتفاقية التغيير المناخي والتي أقرت بقمة «كيتو» باليابان في شهر كانون الأول من عام ١٩٩٧م.

إن تحقيق هذا الهدف سيتطلب الأخذ باستراتيجيات متكاملة طويلة الأجل تركز في آن واحد على تحسين إنتاجية الأراضي، وإعادة تأهيلها وحفظ الموارد من الأراضي والموارد المائية وإدارتها إدارةً قابلة للاستمرار، مما يؤدي إلى تحسين الأحوال المعيشية في المجتمعات المحلية.

وتُلخص اتفاقية مكافحة التصحر التزامات الأطراف من البلدان المتأثرة بالتصحر بالتالي:

- إيلاء الأولوية الواجبة لمكافحة التصحر، وتخفيف آثار الجفاف، وتخصيص موارد كافية وفقاً لظروف وقدرات كل دولة.
- وضع استراتيجيات وأولويات في إطار خطط أو سياسات التنمية القابلة للاستمرار لمكافحة آثار التصحر وتخفيف آثار الجفاف.
- معالجة أسباب التصحر وإيلاء اهتمام خاص للعوامل الاجتماعية والاقتصادية التي تسهم في مضاعفتها.
- تعزيز وعي السكان المحليين لا سيما النساء والشباب، وتيسير مشاركتهم بدعم من المنظمات غير الحكومية في الجهود الرامية إلى مكافحة التصحر وتخفيف آثار الجفاف.
- تعزيز التشريعات القائمة ذات الصلة بمكافحة التصحر وسن الجديد منها في حالة عدم وجودها، ووضع سياسات وبرامج عمل طويلة الأجل.

أما التزامات الأطراف في البلدان المتقدمة فتتلخص بالتالي:

- دعم جهود الأطراف من البلدان النامية لمكافحة التصحر وتخفيف آثار الجفاف.
- تقديم موارد مالية كبيرة وأشكال دعم أخرى لمساعدة الأطراف المتأثرة من البلدان النامية خاصة في إفريقيا، وذلك بوضع وتنفيذ خطط واستراتيجيات طويلة الأجل لمكافحة التصحر وتخفيف آثار الجفاف.
- تشجيع وتحفيز القطاع الخاص والمصادر غير الحكومية لتأمين المال اللازم.

الخلاصة

إن اتفاقية مكافحة التصحر التي دخلت حيز التطبيق عام ١٩٩٧م، هي أول اتفاقية دولية ملزمة قانونياً بشأن مشكلة التصحر، ويقاس نجاح أي اتفاق بالإجراءات التي تتخذ لتنفيذه.

لذا فإن على الدول المتأثرة بتدهور الأراضي وتصحرها عدم إضاعة هذه الفرصة الفريدة من نوعها لوقف التصحر وقلب اتجاهه، فهناك الآن أمل حقيقي للتصدي بصورة مناسبة لمشكلة التصحر المستعصية والتي لن تقهر إلا بعمل ميداني يأخذ الواقع بعين الاعتبار، فالعمل على منع تدهور الأرض وتصحرها، هو بلا أدنى شك، أكثر واقعية من تجديد الأرض المتدهورة. ■

المراجع

- الأمانة المؤقتة لاتفاقية مكافحة التصحر - استعراض لاتفاقية مكافحة التصحر لعام ١٩٩٤م.
- برنامج الأمم المتحدة للبيئة - تقرير حالة العالم ١٩٧٢ - ١٩٩٢م.
- موقع الأمم المتحدة وبرامجها الإنمائية على شبكة الإنترنت www.un.org.
- إبراهيم نحال - التصحر في الوطن العربي - جامعة حلب ١٩٩٢م.
- فاروق فارس الإدارة المستديمة للأراضي - جامعة دمشق ١٩٩٥م.
- محمد غياث الأشرف - البيئة والإنسان والتصحر - جامعة الخليج العربي ١٩٩٣م.
- محمد غياث الأشرف - حماية البيئة الرعوية من التصحر - جامعة الملك سعود ١٩٩٤م.
- محمد غياث الأشرف - تدهور الأراضي ومشكلة التصحر جامعة الملك سعود ١٩٩٩م.

* صور الموضوع : مطابع التريكي

عـودة الســندبـاد

شعر: عبدالله صالح الوشمي *

السـنـدبـاد مسـجـى فـي سـفـيـنـتـه ... والـنـورس الـحـرّ عـن أعشـاشـه طـارا
لارحـلـــة أبـــداً فـــي روحـــه خـفـتـت ... أشـــواقـــه وغـــدت أحـــلامـــه نـــارا
فالبحر - ويح الذي قد كان يجهلنيِ ... قـبـــر وأرفض يـومـــاً كـونـــي الـــدارا
كـان الـرحـيـل يـنـاديـه فـيـحـرقـه ... شـوقـاً ويـتـرك فـي عـيـنـيـه آثـارا
مـذ جـاء ذاكـرة الـصـحـراء تـكـتـبـه ... مــوجـاً وتـنــثــره لـلـيـل أقـمـارا
مـن مـقـلـة الـحـزن قـد سـارت مـراكـبـه ... لا كـهـف فـي ظـلـمـات الـلـيـل أو غـارا
فـالـشـمـس قـد مـلّ يـومـاً مـن أشـعـتـهـا ... والـلـيـل فـي ثـوبـه الـكـحـلـي قـد زارا
أرخـى عـبـاءتـه الـخـضـراء فـي جـزري ... وغـاب فـي نـفـق الـتـاريـخ إعـصـارا
كـم عـانـق الـمـوج كـي يـحـظـى بـقـبـلـتـه ... وكـم روى عـن لـيـالـي الـحـب أخـبـارا
مـن ذا سـيـقـرأ مـجـهـولـي أنـا وطـن ... غـيـر الـنـجـوم أنـا لا أعـرف الـجـارا
أعـطـيـتـه مـن ثـمـار الـبـحـر لـؤلـؤة ... لا بـرّ يـحـمـل عـن عشّـاقـه الـعـارا
لا لـؤلـؤ الـبـحـر يـغـريـه ولا وطـن ... يـحـبـو سـيـسـكـب فـي عـيـنـيـه أشـعـارا
تـبـعـثـرت وهـي لا تـدري خـرائـطـه ... لا لـم يـعـد يـذكـر الأوطـان والـدارا
نـبـوءة الـشـعـر فـي عـيـنـيـه مـئـذنـة ... لـلـخـائـفـيـن وفـي كـفـيـه مـزمـارا
قـم عـانـق الـمـوت عـانـقـه فـلا رجـل ... إلاك يـاسـيـدي قـد أشـعـل الـنـارا
تـعـال لـيـت الـفـتـى لـو أنـه حـجـرٌ ... أو أنـه فـي قـرار الـمـوج قـد صـارا
تـعـال لا درّ فـي مـوجـي فـهـل قـدري ... أن أكـتـب الـشـعـر أو أن أحـمـل الـعـارا
إن كان قد مات من طول السفار فكم ... قـد أشـعـل الـلـيـل والأفـلاك أسـفـارا

---
* شاعر سعودي

نظريات رياضية حديثة تقود إلى فهم أكبر للطبيعة

قد تتمكن أداة جديدة أو جهاز حديث من تحسس ما إذا كان «الزمان - المكان» على أدنى مستوى يزبدان كموجات طائشة في بحر عاصف..

بقلم: هانز كريستيان فون باير*
ترجمة: عبدالله الهاشم**

للمنظور العام وجه آخر. فحين النظر من الطائرة، يبدو الحقل امتداداً ناعماً من الخضرة، ولكن عندما نقف في وسطه، سنجد أن السطح الأخضر ينقسم إلى شفرات منفردة من الحشيش. وهكذا ... فالجزيئات تنفك إلى ذرات، والذرات إلى كواركات وإيليكترونات، وبعد التكبير الكافي يتبين لنا أن كل شيء يخفي في باطنه بنية أكثر دقة.

حسناً، إن كل ذلك يبدو مألوفاً، ولكن ماذا عن شيء أكثر عجباً، ماذا عن الفضاء والزمن، أو الزمان والمكان (بالصيغة الأقرب) ذلك الهيكل المتداخل، الذي يتعلق على هيكله كل البناء. فهل يتصف البعدان: الزمان - المكان بالمصطلح الفيزيائي، بنسيج أو بنية خاصة أيضاً؟ لقد كان آينشتاين، أول من أعطى لفكرة «الزمكان»، كما اصطلح عليه في العربية، بنية في نظريته «النسبية العامة». فعلى مستوى المسافات بين النجوم، تمت البرهنة على انحناء الزمان - المكان خاصة قرب الأجرام ذات الكتل الكثيفة، غير أن هناك أسباباً نظرية قوية، للاعتقاد بأن «الزمكان» عند مستويات متناهية الدقة، سيبدو أكثر تعقيداً مما هو عليه بالقرب من نجم شديد الكثافة، بما يشبه في تعقيده رغوة مزبدة، وذلك فقط إذا ما تمكن المرء من التحديق عميقاً وبعيداً في بنيته المجهرية، كي يراه بوضوح.

وبالنسبة للجيل الحالي من وسائل القياس، فإن الزمان - المكان على المستوى المجهري، هما بالطبع مستمران، سلسان، ودون ملامح. وحتى على المستويات الأدق للمدى الزمني والمسافة التي تميز الجسيمات الأولية، ليس هناك ما يشير إلى انفكاك تناغم الزمان والمكان.

ولكن ماذا سيجد الفيزيائيون إذا ما مضوا نحو التدقيق في مستويات أكثر تفصيلاً، وإلى ما تحت المستويات الممكنة حالياً؟ إن فداناً محروثاً للتوّ قد يظهر مختلفاً بالنسبة لعملاق يمكنه أن يعبره في خطوتين أو ثلاث، مقارنة بنملة تقطعه ذهاباً وإياباً، حيث يبدو لها كل ثلم فيه كالجبل. وكما وجد العلماء في سبرهم لمستويات أصغر وأصغر، هل سيظل الزمان والمكان يحتفظان بذلك التناغم اللطيف؟ أم هل سيتمكن جهاز فائق الحساسية من أن يتحسس نوعاً من النسيج «للزمكان»، كما تتوقع النظرية؟

الجواب هو: لا أحد يعلم. ففي الوقت الراهن، هناك مجموعة من النماذج التي لا يمكن استبعاد أي منها، لأن تأثيراتها التعريفية لا تظهر إلا على مستويات أصغر بكثير من المدى الذي يمكن أن تصل إليه وسائل السبر الراهنة. ولكن ظهرت، مؤخراً، وجهة نظر مخالفة بشأن تتبع تلك التأثيرات. تقترح أن لحمة نسيج وانحناء الكون يمكن أن تتذبذب بطرق قابلة للتتبع على مستويات أكبر بكثير مما يتوقع أي شخص. وبصرف النظر عن مدى تأملية هذه الفكرة، إلا أنها من ذلك النوع الافتراضي الذي يدفع بالفيزيائي إلى الجلوس المتأني وجمع المعلومات.

إن الصعوبة في فهم قياس الزمان والمكان، عند المستويات

كان «آينشتاين» أول من أعطى لفكرة «الزمان والمكان» بنية في نظريته المعروفة باسم «النسبية العامة»



* الكاتب: أستاذ في قسم الفيزياء بكلية ويليامز دميري، في ديليا مزبيرغ - بفرجينيا
** المترجم: كاتب وباحث سعودي

إن الصعوبة في فهم قياس الزمان والمكان، عند المستويات الأصغر، تنبع مما يظهر من عدم توافق بين نظريتين رئيستين في الفيزياء الحديثة هما: النسبية العامة وميكانيكا الكم

الأصغر، تنبع مما يظهر من عدم توافق بين نظريتين رئيستين في الفيزياء الحديثة هما: النسبية العامة وميكانيكا الكم. فالنسبية العامة التي تصف الفضاء والزمان والجاذبية على مستويات كونية بدقة متناهية، وهي تقوم على فكرة الاتساق المستمرة والمتصلة والسلسة.

وكان آينشتاين قد أوضح أن فكرة أو عملية الاتساق (Coordinates)، لا تحتاج إلى أن تكون صارمة كخطوط الطول والعرض في خرائط الأرض. وإذا أخذنا، على سبيل المثال، نسيجاً للفافة حريرية معجونة، حيث تتقاطع لحمتها وتكسراتها بشكل متعامد كلما تقابلا، بصرف النظر عن مدى تغضن الطيات، فإن ذلك يعطينا فكرة عن نسقي «الزمكان»، اللذين تسمح بهما النظرية النسبية. لكن ما هو أهم من النعومة يتركز في حقيقة أن الزمان والمكان خاضعان لتأثيرات المادة، وأنهما بدورهما يؤثران فيها. وتتلخص روح النسبية العامة في عبارة الفلكي جون أرتشيبالد ويلر: «المادة تخبر «الزمكان» كيف ينحني، و«الزمكان» يخبر المادة كيف تتحرك».

أما ميكانيكا الكم، العمود الآخر للفيزياء الحديثة، فتنطلق من قواعد مختلفة. فهنا لا يدخل الزمان والمكان كمشاركين، بل كمجموعات من بطاقات التعرف لتحديد مواقع الأشياء والأحداث على المشهد الكوني. وما ينبغي تذكره، هو أن جميع ظواهر ميكانيكا الكم، خاضعة لمبدأ هايز نبيرغ الذي يتبنى مقولة عدم التيقن، والذي يقول: «بقدر ما يتم تحديد الجسيم بدقة، بقدر ما تتذبذب حركته عشوائياً، والعكس صحيح. فعدم التيقن يغبش الخطوط الحادة الواضحة للجسيمات ومساراتها مما لايمكن معه التنبؤ بقياسها».



الثابت الرياضي لدى «نيوتن» والمعروف اختصاراً بـ (G) يربط بين الشكلية المجردة للنظرية العامة للنسبية وندرة الجاذبية كما نعيشها في الواقع

إن كل شيء، بما في ذلك حقل الجاذبية الذي تولده جسيمات تعرف بالغرافيتونات، هو بذاته، خاضع لتذبذبات الكم. فمثلاً إذا أردت أن تحدد مواضع غرافيتونات، أو بكلمات أخرى الخصائص المحلية لحقل جاذبية، بدقة أكبر، فإن حركاتها أي التذبذبات التي لايمكن التنبؤ بها للحقل، ستشتمل على مدى أوسع بصورة متزايدة. ولأن حقل الجاذبية مقيّد بالزمان – المكان، حسب النسبية العامة، فإن «الزمكان» نفسه، يجب أن يتذبذب باتساع على مستوى مجهري، ولا يبدو محتفظاً باتساقه الظاهر على طول سلم المسافات.

إن التباين بين أساسات النسبية العامة وميكانيكا الكم هو واحد من أكثر الأمور عرقلة للتوصل إلى نظرية نهائية عن المادة. وبسبب نقص الأدوات التعريفية، يحتار النظريون في الإجابة عن سؤال التجريبيين وهو: ما نوع البنية التي ستظهر، فيما لو تم فحص الزمان والمكان بأدوات تمتاز بدقة متزايدة؟

وللإجابة، هناك ثلاث إمكانات: حيث تقول ميكانيكا الكم أن الضوء والطاقة والشحنة الكهربية وكميات أخرى أساسية، تأتي على شكل إضمامات أو حزم منفصلة. كما أثار معظم الفيزيائيين بأن «الزمكان»، أيضاً، ذا بنية حبيبية، عند مستوى معين. وبالرغم من انعدام وجود أية نظريات كاملة خاصة بهذا الاقتراح، إلا أن الفكرة تنبثق من حين لآخر في حقل الأدبيات العلمية.

وفي مقال له، في عام ١٩٨٩م، بعنوان «It from bit»، دعا العالم الفلكي جون ويلر إلى وصف العالم المادي بـ «it» في لغة نظرية الإعلام «bit». مقترحاً أن يستغنى عن فكرة أن الزمان – المكان قطاع من سلسلة أرقام حقيقية متصلة.

وإذا ما نجح هذا المشروع، فإنه سيحيل الزمان – المكان، إلى كونهما مجرد طريقة لوصف العلاقات بين الأشياء والأحداث معبراً عنها بلغة قطع منفصلة، معرفة بأعداد صحيحة بدلاً من اتخاذها كنوع من خلفية تمتاز ببنية خاصة.

من جهة ثانية، تبرز صورة أكثر دقة وتفصيلاً، «للزمكان»، في نظرية الخيوط الفائقة (super string theory)، التي تنجح في التوفيق بين ميكانيكا الكم والنسبية العامة، بزيادة هائلة في استخدام المعادلات الرياضية.

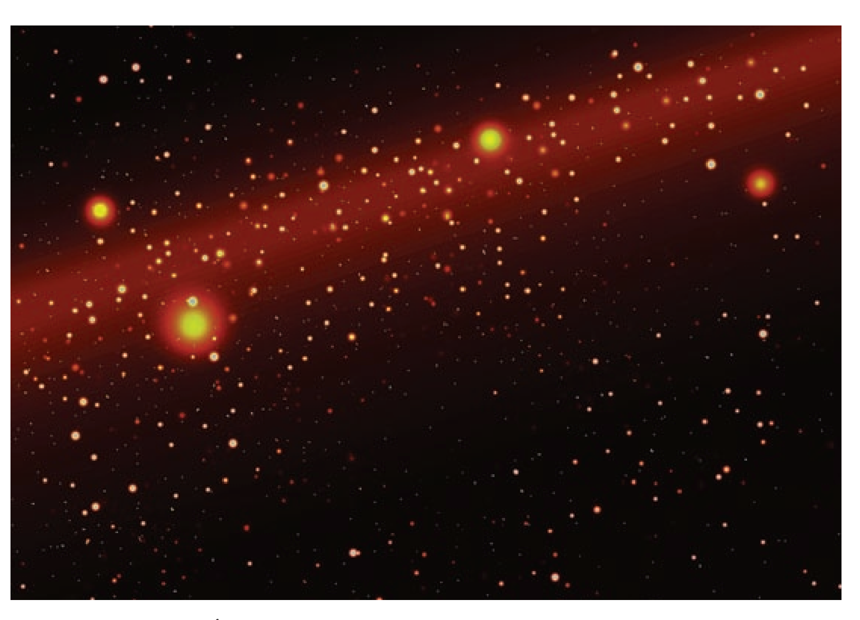
وتعرّف هذه النظرية، التي هي في طور البحث،

الجسيمات كأنماط من موجات خاصة، تنتجها جزيئات صغيرة من خيوط. وفي وصفه الشعبي المتمكن لنظرية الخيط الفائق، بعنوان «الكون الرائع» يعرف الفيزيائي بريان غرين، الذي يعمل بجامعة كولومبيا «نسيج الزمكان» نفسه بعدد ضخم من الخيوط، تخضع جميعها لنفس نمط الغرافيتون المتسق - من الاهتزاز». ويضيف «إن تلك الخيوط هي صورة شاعرية، إلى حد ما، وتبدو كنسيج للزمكان». والاحتمال الثالث، لما يمكن أن يجده الباحثون، عند أعلى مستوى للتكبير، هو زبد محتدم، دعاه ويلر بـ «رغوة الكم»، فيما دعاه آخرون بـ «رغوة الزمان - المكان» حيث تسود ذبذبات الكم. وضمن هذا المنظور ستتمكن جسيمات مركبة كبيرة، كالبروتون، في الأغلب من تجاهل الهيجان، وستعتلي سطح «الزمكان» كسدادات الفلين على سطح بحر هائج، مما يؤدي إلى تغيير الاتجاهات فالأعلى يتغير إلى أسفل واليمين إلى يسار وقبل إلى بعد ... في رغوة متفاقمة محتدمة.

ونظراً لكون الاتجاهات الأربعة «للزمكان»، تعامل على قدم المساواة، فإن الزمان والمكان سيفقدان هويتيهما المستقلتين، وسينقلب الأعلى إلى قبل والأيسر إلى بعد. أما الثابت الوحيد الذي يبقى، فسيكون هو التغيير الذي لايتوقف. فأية صورة للمادة سوف تنتظر الفيزيائيين لتحييهم، عندما يصلون إلى قاع الحد العميق؟ هل هي تشبه الرمل أم الحرير، أم رغوة الصابون؟

الفيزياء علم كميّ، والعلماء دائماً يبدأون التحقيق بتقدير الأعداد التي تميزها، كطريقة لتسييج أرضهم في حالة «الزمكان». فالسؤال هو: أي حجم يجب أن يتوقعه المرء لحبات الرمل وللفجوات بين جدائل الخيوط ولفقاعات الزبد؟ طبعاً لا يمكن إعطاء جواب دقيق ويُكتفى بإعطاء تقدير تقريبي. فإذا كانت هناك نظرية نهائية للمادة، فإن شدة التذبذبات في (نسيج) «الزمكان»، يجب أن يعبر عنها بمصطلحات أساس عن المدى والطول. فالأبعاد النمطية يجب أن تأتي من النظرية نفسها، وحتى إذا لم يعلم أحد بالشكل النهائي للنظرية نفسها، فالفيزيائيون بإمكانهم تعريف أكثر محتوياتها أهمية، مما يتيح إمكانية إنشاء الوحدات الأساس لقياس «الزمكان».

إن لكل نظرية فيزيائية متغيرات وسيطة عددية لايمكن اشتقاقها، ولكنها تقاس في المختبر، ثم تضم إلى النظرية كجزء منها. وحين تكون النظريات أساسية، تدعى تلك الأرقام بثوابت الطبيعة، وتكون عماداً تجريبياً للرياضيات المحضة وأقدم الثوابت الثلاثة الأكثر أساسية هو (G) الذي يثبت شدة قوة الجاذبية، ويدعى، أحياناً، ثابت نيوتن، ويقوم (G) أيضا بالربط بين الشكلية المجردة للنظرية العامة للنسبية وقوة الجاذبية التي نعيشها في العالم الحقيقي.



تتنبأ النظرية النسبية العامة بأن تفقد بعض المنظومات النجمية طاقتها الكامنة بسبب تأثير التجاذب المستمر

الثابت الثاني الأساس، هو سرعة الضوء (C)، وقد جرى قياسه بدقة متزايدة على مدى قرون. وفي القرن التاسع عشر، أخذ كمقدار تحديدي في النظرية الخاصة، بجميع الظواهر الكهرومغناطيسية. وفي القرن العشرين، غزا هذا الثابت حقل الميكانيكا عبر النسبية الخاصة.

أما أحدث عضو في الثالوث الأساس فهو (H)، وقد قدمه ماكس بلانك وسمي باسمه. فثابت بلانك هو بمثابة السلم لميكانيكا الكم، لجميع الظواهر الذرية.

وفي أية نظرية كمية للجاذبية، تكون الثوابت الثلاثة المذكورة (G,C,H)، هي عماد القياسات المتخذة. وبالرغم من أن لهذه الثوابت أبعاداً فيزيائية مختلفة، إلا أنه يمكن دمجها في عدد بسيط وفريد له وحدات طويلة.

إن طول بلانك كما يسمى، هو (10^{-33}) من السنتيمتر، وهي مسافة تعجز أدق الآلات عن الإمساك بها. وإن زمن بلانك، الذي يلعب دوراً في التاريخ المبكر للكون، ويمثل الوقت الذي يلزم الضوء ليعبر طول بلانك، هو أكثر استعصاءً من ذلك، فهو في الوحدات المعتادة يبلغ حوالي(10^{-43}) من الثانية.

تلك هي أبعاد المادة التي يتكون منها الزمان - المكان. وهي أبعاد لا يمكن تصورها.

أين يذهب المرء من هنا؟ إن النظريات التعريفية لم توجد بعد، والتجارب لا تسعفنا، وحتى التخيل يعجز عن إدراك ذلك. وعندما واجه النظريون هذا التحدي الذي لا يمكن التغلب عليه، بدأوا يقلدون متسلقي الجبال،

إن التباين بين أساسات النسبية العامة وميكانيكا الكم هو واحد من أكثر الأمور عرقلة للتوصل إلى نظرية نهائية عن المادة

تعطي المراقبة الدقيقة لنجوم النيوترون الثنائية التي تدور بشكل حلزوني نحو الداخل أي حول مركزها، الدليل المعقول، وإن كان بشكل غير مباشر، بأن الطاقة تغادر الأنظمة حسب المعدل الذي يجب أن تحمله موجات الجاذبية

فيتشبثون بأي شيء تطوله أيديهم. على أن هناك طريقاً واعداً يمتد من البحث عن التأثيرات الكمية على مقياس أكبر من طول بلانك. فإذا كان طول بلانك (l) هو المسافة الوحيدة في النظرية، فإن حساباً مدققاً سيتنبأ بحجم متوسط للفقاعات في رغوة الكم، يكاد لا يختلف عن (l). وحتى لو جاء الجواب ليكون (١٢٧١) أو (P31)، أو أي شيء من هذا القبيل، فلن يكون أي من العوامل الإضافية المحسوبة كبيراً بما يكفي لرفع رغوة الكم إلىمستوى قابل للقياس.

ولكن ماذا لو أشارت النظرية إلى مقياس آخر للطول لنقل مسافة (L) مكبرة، وهي أكبر بكثير من طول بلانك الأساس. عندئذٍ، يمكن القيام بتنبؤات جديدة بشأن رغوة الكم حتى بدون معرفة البنية النهائية لمثل هذه النظرية.

وعوضاً عن الإصرار فقط، على الأعماق الرهيبة لطول بلانك. فإن ترجرجات الكم، التي يمكنها أن تغشى نسيج «الزمكان» ستظهر على مدى من الأحجام يمكن أن يصل إليها المجربون، ولنأخذ مثالاً على ذلك كافتراض لبيان الصورة، أن (l) سنتيمتر واحد، وأن (L) هو مليون سنتيمتر. فأي كمية مركبة من جموع جبرية معينة من الاثنين؟ إن أية مسافة، مهما كانت، من (l) إلى (L)، يمكن تصور بروزها في نظرية تعتمد هذين المقدارين من الطول. وقد بدأ عالمان متخصصان في الفيزياء النظرية من جامعة نورث كارولينا – في تشابل هيل، هما: بي جاك إن جي، وهيندريك فان دام، محاولة لاستكشاف إمكانية التقدم خطوة أقرب إلى الرغوة الكمية، بزيادة تقدير مقدار المسافة إلى أعلى من طول بلانك البعيد، وتحركاً من النقطة التي تقول بأن الأنساق في النسبية العامة، هي فكرة تعسفية بالكامل، ولم يتم تحديد معانيها إلا بعد تثبيتها بعناية مجدداً في كل تجربة، على أساس أخذ قياسات فعلية للأزمنة والمسافات، وقبل أن يدخلا في التفاصيل، ناقش إن جي وَفان دام، بأن تفسير قياسات الذبذبات الكمية، في نسيج الزمكان، يجب أن يشير إلى جهاز القياس الفعلي.

وفي الخطوة الثانية من التحليل، تُستحضر مبادئ النسبية العامة لتلعب دورها، ولصالح ثبات أكثر، يمكن جعل وسيلة الساعة – الليزر ثقيلة بما يكفي لإحناء «الزمكان» المحيط بها إلى حد ابتلاع الآلة بكاملها، إلا أن عدم مساواة بسيطة من النسبية العامة تضمن تفادي مثل هذه الكارثة.

عندئذ تدمج النتيجتان في معادلة لعدم التيقن في القياس، الناتجة عن مكانيكا الكم والنسبية العامة التي جاءت في شكل الجذر التكعيبي (l^2L) حيث أن (l) هو طول بلانك و(L) هي المسافة المطلوب قياسها.

وإذا كانت (L) طويلة إلى حد ما مثلاً: كيلومتراً واحدا، فالمعادلة تكون مساوية لـ(10^{-20}) من السنتيمتر.

وهناك ثمة شيئ ما أكبر من تذبذبات ممكنة، وهو الجذر التربيعي لـ (L   l) أي حوالي (10^{-14}) من السنتيمتر، باتخاذ نفس طول (L) العام الماضي، وهو ما تم تقديره من قبل الفيزيائي جيوفاني أميلينو – كاميليا، الذي يعمل حالياً بجامعة روما، والذي توصل إلى نتائجه من خلال محاولة مختلفة قليلاً. وقد يكون ذلك التقدير قد استبعد بفضل نتائج التجارب الأخيرة. وعلى أية حال إن عظم الطول الذي اقترحه إن جي وَفان دام هو أكبر بكثير، من طول بلانك ولكنه مايزال صغيراً إلى درجة تفوق التصور.

ومهما يكن. فالتذبذبات عند مقدار إن جي وَفان دام، هي ضمن الأطوال في التجربة. والفكرة الأساس هي تضخيم التذبذبات بأداة قادرة على قياس الاختلافات في الطول على مسافات بعيدة بدقة متناهية. ومن الملاحظ أن الآلات العملاقة المصممة لجس التنوسات (Oscillations) الدورية «للزمكان» المعروفة بموجبات الجاذبية، قد جاءت حسب المطلوب ويجري حالياً بناء عدد من هذه الأدوات في أنحاء العالم لعلها تفلح في التقاط الذبذبات الخفية لموجات الجاذبية، التي يبلغ خفوتها درجة واطئة لا يمكن معها تحسسها إلا بصعوبة بالغة.

إن موجات الجاذبية نفسها هي تنوسات «للزمكان» لكن يجب الحذر من التباسها مع الظاهرة الكمية، فهي بخلاف ذلك تنشأ من انحناء، الزمان – المكان، الذي تسببه الأجسام الكبيرة ذات الكثافة الشديدة على المسافات الفاصلة بين النجوم. وتتنبأ النسبية العامة بمثل هذه الاضطرابات الخاصة بالزمكان، وخاصة تلك الصادرة من نجوم كبيرة، تتساقط على بعضها البعض، بسبب تأثير التجاذب المتبادل. فمنظومات نجمية كهذه تفقد طاقتها الجاذبة الكامنة بسرعة كبيرة، وحسب النسبية العامة، تُبث هذه الطاقة بعيداً عن النظام النجمي في جميع الاتجاهات كموجات جاذبية.

وتعطي المراقبة الدقيقة لنجوم النيوترون الثنائية التي تدور بشكل حلزوني نحو الداخل، حول مركزها، الدليل المعقول، وإن كان بشكل غير مباشر، على الطاقة التي تغادر الأنظمة، بالضبط حسب المعدل التي يجب أن تحمله موجات الجاذبية.

وتعدنا التقنية الحديثة، المقترنة بالخبرة المكتسبة

في علم الزلازل، بنجاح مأمول في هذا المجال في المستقبل القريب. إن أشهر مجس لموجات الجاذبية، في الولايات المتحدة الأمريكية هو مرصد قياس تداخل الليزر لموجات الجاذبية (LIGO) الذي جرى تدشينه، في نوفمبر من عام ١٩٩٩م. ويشغل هذا المختبر مجسين متباعدين، ويعملان بصورة متوازية. فأحدهما في هانفورد، بواشنطن، والآخر في باتون روج، بلويزيانا.

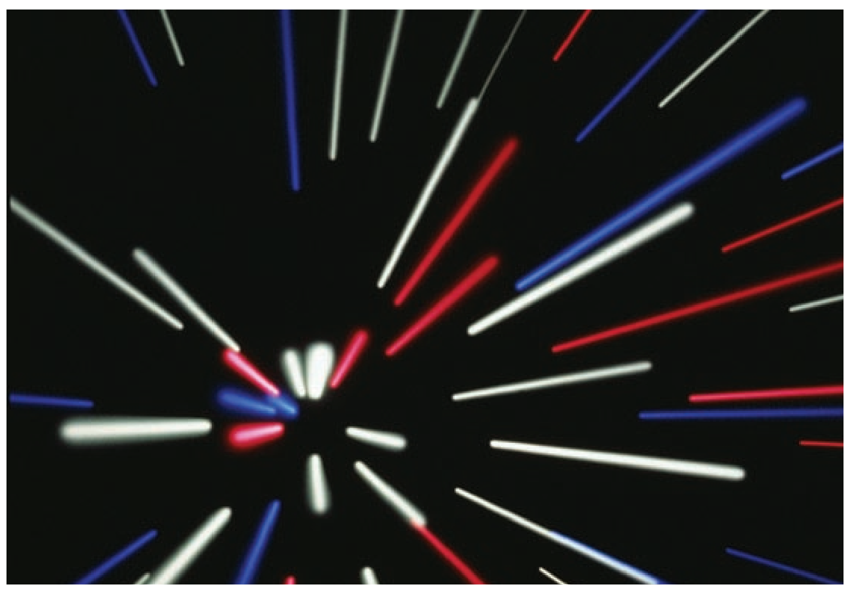
ويمتد من كل مجس ذراعان متعامدتان، يبلغ طول كل منهما أربعة كيلومترات، تلتقيان عند نقطة تسمى السمت (vertex) لإدخال شعاع الليزر الذي ينفلق إلى قسمين، ينطلقان إلى نهاية الذراع، عندئذ يتم عكس الشعاعين، بواسطة المرايا نائية، إلى السمت، حيث يندمجان. ومن الخصائص البارزة لموجات الجاذبية أنها تقلص طول إحدى الذراعين بينما تزيد من طول الآخر. ويمكن تسجيل أي تغير في أطوال الذراعين، على نطاق مجهري يبلغ مقداره واحداً من بليون من طول موجة ضوء الليزر. وبالرغم من أن تصميم (الليغو) لم يأخذ رغوة الكم في الاعتبار، إلا أنه يحقق المطلوب بالضبط كجهاز قادر على جس التغيرات الضئيلة في الطول، على مسافة طويلة هي (L).

إن مهمة البحث عن موجات الجاذبية تثقل كاهل أجهزة الليزرات والمرايا والأثقال، بالإضافة إلى ما تسببه من الضجيج. فالأصوات الفعلية في المبنى والتهيج الحراري والارتجافات الزلزالية المجهرية، وحتى التدافع العشوائي للمرايا الذي تسببه الفوتونات المنطلقة من الليزر، كلها يجب إدخالها في الاعتبار، لكي تلغى من الإشارة. وإلى تلك القائمة من مصادر الضجيج، أضاف فيزيائيون، (كأميلينو - كاميليا، وإن جي، وفان دوم)، مصدراً آخر، وهي الغرغرة الخافتة لرغوة الكم. ومن المثير أنهم واثقون من أنه يمكن سماعها من فوق اللجة.

وفي مقال بعنوان «قياس رغوية الزمكان بواسطة جهاز التداخل لموجات الجاذبية» المنشور في مجلة «Foundations of Physics»، يقارن إن جي وَفان دوم آخر المستجدات في تقنيات مجسات موجات الجاذبية، لقياس رغوة الكم. لكن التنبؤ التقليدي القائل بأن الرغوة ستغدو ظاهرة، فقط على مسافات مقاربة لطول بلانك، يظل أمراً غير قابل للاختبار. ولكن في ضوء النتائج التي توصلا إليها، لا يملك الفيزيائيون إلا إظهار الأمل. فأجهزة قياس موجات الجاذبية الحديثة، أصبحت على مرمى حجر من اختبار مشهد رغوة الزمان - المكان الذي افترضاه.

إنه اقتراح جريء يقف على تخوم المعرفة بدون جدال، غير أن المعارضين لحسابات إن جي وَفان دام، يستبعدونها على أساس أنها افتراضات غير حقيقية. لكن إن جي وَفان دوم يدافعان عن قناعتيهما بشدة. والنقاش الناتج سيتواصل بالتأكد، حتى يتم إعلان الفائز فيه، سواء عن طريق المراقب التجريبية، أو عن طريق التحليل النظري. وفي الوقت نفسه، يستمر البحث عن طرق أخرى لملاحظة رغوة الكم. فمثلاً، تم اقتراح أن البنية المجهرية «للزمكان» تؤثر في الطريقة التي تعمل بها قوة الجاذبية، على مسافات تقل عن السنتيمتر الواحد، حيث لم يجر اختبار ذلك حتى الآن. وعلى الطرف الآخر من سلم المسافات، عرض (أميلينو - كاميليا) أن يقوم المحققون بالتأكد عما إذا كان بمقدور رغوة الكم إيجاد أطوال إضافية كافية داخل نسيج الزمكان، لكي تهدئ من الفوتونات ذات الطاقة العالية الصادرة من انفجارات أشعة إكس التي تصل إلى الأرض، بشكل متقطع من مصادر غير معروفة. ويأمل كاميليا في أن تصبح المجسات المحمولة على متن «المحطة الفضائية الدولية»، حساسة بما يكفي للتحقق من ذلك.

ولننتظر. فإذا كان إن جي وَفان دوم على حق، سيتمكن الفيزيائيون، عما قريب، من إلقاء النظرة الأولى على سطح الكون، والتثبت فيما إذا كان يشبه الرمل أو الحرير أو رغوة الصابون. ■



تطوير تقنيات فيزيائية حديثة لقياس موجات الجاذبية

لكل نظرية فيزيائية متغيرات وسيطة عددية لايمكن اشتقاقها، ولكنها تقاس في المختبر، ثم تضم إلى النظرية كجزء متمم لها

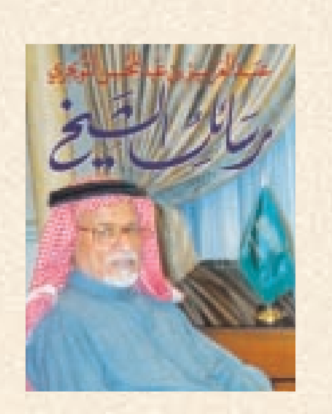
* مترجم بإذن خاص من مجلة «ذي ساينس» الأمريكية

* صور الموضوع: مطابع التريكي

قراءة في كتاب:

الرسائل التي خاف عليها الشيخ عبدالعزيز التويجري من الضياع

بقلم: عبداللطيف الأرناؤوط *



إن كتاب "رسائل خفت عليها من الضياع" للشيخ عبدالعزيز بن عبدالمحسن التويجري يثير تساؤلات عديدة عن أهمية تلك الرسائل، فقد حرص الكاتب على حفظها وتقديمها للقارئ العربي. وهي رسائل تبادلها مع بعض أعلام الفكر والأدب والثقافة، فألفت ملفاً جديراً بالنشر، وإن كانت يد الزمن عبثت ببعضها فضاعت.

ولعل "التويجري" لم يقدر بادئ ذي بدء قيمة تلك الرسائل التي لايخطر على الذهن أنها ستكون جزءاً من التراث الأدبي يكمل ما بدأه السلف من فن الرسائل.

يقول الشيخ التويجري: «شعرت بمسؤوليتي من هؤلاء الإخوة -الذين راسلوه- وخوفي على أدبهم وفكرهم وتجربتهم من يد عابثة لاتعرف قدرهم، فقامت في ذهني خاطرة مليئة بالحيوية تقول لي ليست هذه الرسائل شيئاً يورث، حررها من كتبك قبل أن يقابلك الأجل، فما قيمة الأدب والفكر والتجربة إذا لم يتواصلوا وأديب اليوم والغد ومفكره؟؟

نعم. إذا لم يتواصل الأدب والفكر اتسعت الفجوات الفكرية فيما بين الأمس واليوم والغد، وتقطعت أواصر النسب».

ولم يشأ «التويجري» ذلك «البدوي» المهذب المتواضع الذي صقلته مدينة البداوة بقيمها، أن يشير إلى رسائله بين تلك الرسائل بحكم أنها تمثل طرفاً من التواصل إرسالاً أو استقبالاً وجواباً، تواضعاً منه، وكأنه يريد أن يقول: «لو تمت الفائدة بإحياء ما كتبه الآخرون منها دون ما كتبته، لاستغنيت عنها ولم أنشرها، لكن طبيعة التبادل بين المتراسلين تقتضي أن يكون رد وجواب وألا يفهم القرين إلابقرينه».

إذا لم يتواصل الأدب والفكر اتسعت الفجوات الفكرية فيما بين الأمس واليوم والغد، وتقطعت أواصر النسب

الشيخ «التويجري بعد عطائه الإبداعي المتميز في كتبه، وتسليم الناس له بمكانة الكاتب المتميز، لاأحسب أنه يتوخى من وراء نشرها شهرة أو ظهوراً في عالم الأدب بين المناكب التي تتزاحم على الشهرة، فقد تحقق له ذلك منذ زمن، ولايتوخى من ورائها مكانة اجتماعية لأنه يحتل موقعاً وظيفياً واجتماعياً من أبرز المواقع في المملكة العربية السعودية. وفي اعتقادي أنه أقدم على هذه المبادرة خدمة للأدب العربي ولفن الرسالة، ذلك أن هذا الفن العريق في التراث العربي الإسلامي كان ومايزال ينهل من واحات متفردة وبيئات أدبية خاصة، خلافاً لفنون الأدب الأخرى؛ فللشعر في التراث العربي استمرار وتواصل لعناية الناس به، أما الرسالة فتاريخها يرتبط بروادها البارزين الذين يستثيرون برسائلهم من حولهم بعد كل ركود في مسيرتها. وهكذا كان تاريخها خلال التراث العربي مديناً لروادها، يحرك سكون بحيرتها الراكدة أديب مبدع، «فيتمدرس عليه من حوله ومن جاء بعده، لأنها نمت وترعرعت على هامش الفنون الأخرى، ولم تكن هدفاً أدبياً يرمي إليه إلا حين كان لها مدلول مغاير يلتبس بمدلول الكاتب أو الدراسة.

وقد يتفاوت الأدباء بالرغبة في التواصل مع الآخرين حسب انفتاحهم على الآخرين أو انطوائهم على النفس. والرسائل الذاتية لم تكن من قبل تولى تلك الأهمية التي مُنحت لفنون الأدب الأخرى. ومن المؤلم حقاً ألا نجد في تاريخ الأدب وتراجم الأدباء والشعراء المشهورين كالمتنبي وابن الرومي وجرير والفرزدق محاولات من مثل ذلك. وأعتقد أن تواصلهم مع الناس كان مقصوراً على الشعر وحده، والقليل منهم من أدلى بدلوه في هذا المجال.

ويلتمس الشيخ التويجري مسوغاً عاماً لنشر تلك الرسائل، فيراه في ذلك التفاعل الحي بين أبناء المملكة الذين ينهلون من مبادئ الدعوة الإسلامية «فالعزلة والوحشة وسوء الظن بالناس شيء ترفضه الدعوة، وينفيه عن روح الإسلام رسالته الإنسانية التي هي للبشرية».

كما يلتمسه أيضاً في أهمية نشر تلك الرسائل التي لم تكن « انحيازاً لأحد دون أحد ، ولكن غلب على الاختيار قِدَم

* كاتب وباحث من سورية

بعضها، وكبر سن أصحابها، مؤكداً أهمية أدب الرسائل الذي شكل جزءاً من الأدب العربي قديمه وحديثه».

ورسائل الأديب الشيخ التويجري، متنوعة الأغراض والدوافع، منها ما وقع إليه موقع الرجل لوظيفته، ومنها مايدخل في باب الرسائل الفكرية والتأملية أو الرسائل الذاتية التي يتبادلها الأدباء، ليعبروا عن مشاعرهم الخاصة واهتماماتهم وخياراتهم في الحياة. وبحكم انفتاح الشيخ التويجري على الآخرين، وحرصه على أن تكون الرسالة رسالة بالمعنى القيمي والخلقي والإنساني، اتسمت مراسلاته بسمات مخصوصة تتميز بها، واتسعت دائرتها، لكنه لم يثبت من تلك الرسائل التي تبادلها مع الآخرين في كتابه، سوى نيف وخمسين رسالة، فقد استبعد كثيراً من الرسائل الشخصية التي لاتدخل في دائرة الفكر والأدب، ولاتحقق الغرض الفني من نشرها. فالذين اختارهم ممن راسلوه هم من أعلام الفكر في مجالات الأدب والسياسة وعلم النفس والتاريخ والجغرافيا والفلسفة، وبذلك أتاح للقارئ أن يطلع على ما وراء نتاجهم الأدبي والفكري من عوالم ذاتية وفكرية متنوعة، تجمع بينها وحدة الإنسان في الجوهر، ذلك أن أدب «التويجري» وفكره في كل ماكتب، كان ينصب على جوهر الإنسان، ويسعى إلى ترقيته روحياً، واكتشاف أعماقه الدفينة التي تنزع مهما تنوعت المشارب إلى الاتحاد بالمطلق خالق هذا الكون، من خلال تعاليم الإسلام، دين الفطرة، والدعوة إلى عودة هذا الكائن المتغطرس إلى صفائه الروحي. بعد أن غرَّبته الحضارة الحديثة، وجعلته حشرة تسعى للطعام والشراب واللذة، وبهيمة علقت أهدافها في الحياة بنوازع الإنسان الدنيا دون التطلع إلى السماء ورسالتها.

والشيخ التويجري في هذه الرسائل صاحب عقيدة راسخة لايتزحزح عنها، ومن المثير للعجب حقاً أن فكره وتأملاته وكشوفه الروحية في الرسائل لاتختلف عن فكره وتأملاته في مؤلفاته. بل ليس ثمة فرق في أسلوبه بين مؤلفاته المتعددة. ومن النادر أن نعثر على مثل ذلك التوحد في الفكر والتعبير لدى الكتاب المعاصرين، خاصة حين تتنوع كتاباتهم. إن وحدة الروح والنفس الأدبي لدى الشيخ التويجري في تأليفه ورسائله هي ثمرة نظرته الموحدة إلى الوجود والمصير، ورسالة الإنسان فيها.

لنأخذ أي رسالة من رسائله فإننا نجد فلسفته تصب في مجرى واحد وتنبع من ينبوع واحد.

فقد كتب إلى الأديب محمد جلال كشك بعد صدور كتابه: «السعوديون والحل الإسلامي».. «هذه الصحراء، وهذه الوديان، وهذه الجبال، وهذه الآلاف من الأميال، كلها كتاب واحد.. ولكن من يقرؤه؟ لاأدري.. ولكي أتصور قارئه آت إليه من رحم ليلى وبثينة أو عزة، وأرحام الأمهات والجدات هي التي ملأت هذه الصحراء بالصور المتعاقبة جيلاً بعد جيل.. وإلى أن يحين قدرنا مع القارئ والكاتب، نظل في انتظار البشير بالمولود الجديد..»



الشيخ/ عبدالعزيز بن عبدالمحسن التويجري

إن الشيخ التويجري في عصرنا هو ظل وفياً لهذه الصحراء، متوحداً فيها في عصر قليل فيه من البشر من يكلف نفسه عناء السفر إلى النبع فيرده، ويتعرف بفضله في تجرد ونزاهة.

وفي رسالة موجهة إلى الكاتب يوسف إدريس، يفند التويجري سبب ضياع الإنسان في عصرنا، فيكتب: «ألا يمكن أن نرد كل ما يعانيه إنسان هذا العصر من عذاب وألم وفقر ونزف دماء وتجاوزات على القيم والمثل العليا سببه أن منبر «الفضيل بن عياض» والشيخ الجليل «ابن الجوزي» وغيرهما نزل عنه الوعاظ الأتقياء، فصارت قفراً موحشاً نفس الإنسان؟» ويندد بالذين تحولوا عن قيم الأجداد ومثلهم، وقيم الصحراء، فيقول في رسالة أخرى وجهها إليه (نحن نعيش هذا العصر مفاهيم جاءت إلينا من رعاة البقر ورعاة الخنازير، أنجفل منها كما تجفل الربد، ونتركها جملة وتفصيلاً؟ أم نفتح كتابنا في التاريخ، ونقرأ فيه دورنا في عصر ارتياد الفضاء، ونوقظ في وجه سراق الفكر وسراق لقمة العيش من فم الجائع؟ نحن شركاء لسنا طفيليين على مائدة العلم، فإذا أصابنا جور

رسائل الأديب عبدالعزيز التويجري، متنوعة الأغراض والدوافع، منها ما وقع إليه موقع الرجل لوظيفته، ومنها مايدخل في باب الرسائل الفكرية والتأملية أو الرسائل الذاتية التي يتبادلها الأدباء، ليعبروا عن مشاعرهم الخاصة واهتماماتهم وخياراتهم في الحياة

رسائل يوسف إدريس إلى التويجري: "إحساس عميق يربطني بالكاتب المبدع فيك، ذلك الذي تذهلني قدرته على الإبداع التلقائي، وهو الشيء الذي لا أستطيع أن أفعله"

الزمان، وحاول أن يضعنا في سلة المهملات، تجاوزنا عثرات الطريق وفلسفة المادة ونظرتها إلى الحياة ومؤسساتها المرابية التي يقطر اللؤم والخبث من جمجمة مشروعها، إلى ذلك اليوم الأمثل الذي نزلت فيه آيات الله سبحانه على رسوله، (صلى الله عليه وسلم).

كما كتب إلى الكاتب «لطفي الخولي» رسالة يقول فيها: «فأمتنا أمة عظيمة في التاريخ البشري. لا أتصور أنه قد غاض معينها أوجفت مصادر الخير فيها، ربما كدرت الأيام البعيدة هذا المعين ببعض التخريفات والمذاهب اللاأخلاقية والسياسية، وصارت إلى مواريث يدحرجها الزمن من جيل إلى جيل.

هذا الواقع اختلطت معه أمور أخرى، وصارت شعوبنا العربية في كل لحظة، تخرج من محنة إلى أخرى، ومن ظروف قاسية إلى ما هو أقسى على العقل والتفكير والحياة العامة».

وفي رسالة إلى الدكتور راشد المبارك، يتمنى «التويجري» لو أنه لم يشهد هذه الحضارة الوافدة، ويود لو كان أحد هؤلاء الصعاليك الذين أفرزتهم صحراء العرب، فذلك خير لنا من أن نخدع أنفسنا ببريق هذه المدينة، ونعيش على هامشها أذلاء متجاهلين.. فيقول:

«إن رمال هذه المدينة وكثبانها التي تهب علينا، ترانا مخدوعين بليونتها، ورقتها، وانسيابها إلينا؟

أترانا نميل إليها وندفن فيها وعينا مثلما تفعل النعامة؟ لماذا نتجافى عن الجبل ونهجره؟

أم لأن أقدامنا لاتقوى على الصعود إلى قمم الجبال الشامخة؟؟»

والتويجري لايهادن أعداء أمته، وقد ارتدى بعض هؤلاء لها ثوب الخديعة مدعياً أنه يناصرها، فنراه في مقابلة له مع «كلوب» القائد الإنكليزي جرت في «لندن» بعد تقاعده، يكذب مزاعمه بأنه يسعى لنصرة العرب، فيقول له بصرامة: «إن ماضيك وظروف ماضيك وتحركاتك في الماضي هي ملك لأمتك وما تمليه عليك سياسة هذه الأمة.. فاتق الله إن مكنتك الحياة من محاسبة نفسك ومحاسبة السياسة، فتقول عنها بصراحة وأمانة مالك وما عليك..».

ويعلق في هذه الرسالة على بعض مزاعم «كلوب باشا» فيقول له: « أبشرك أنك آخر رجل في أرض العرب يمكن أن يجد فرصة يخفي فيها وجه سياسة بلده».

ويرد عليه كلوب: أنت قاس..

فيجيبه التويجري «لأني بدوي من أبناء الصحراء في طبيعته الجفاء والغلظة، فسامحني، أنت من أذكى من دخل البلاد العربية، وكلف بمهام، هل تتصور أننا نصدقك أنك قاتلت إسرائيل كما تقول..؟ أية سذاجة هذه لو قبل بها طفل من أطفال العرب».

ويهدي إليه باسم الجسر ديوان شعره في الغزل، فيبتسم ويكتب إليه متخيلاً - كالمعري - أنه يرحل في ماضي الجزيرة العربية مستعرضاً عشق العذريين كرم حاتم وصحوة امرئ القيس انتقاماً لأبيه، ثم يعلق على ديوان الشاعر فيكتب له: «رجل مثلي لاشك أن أحلامه لاتأتي إلا من هذه البيئة التي عاشها، وقد يجد في حلمه الجميل والخيمة والغدير وظباء الفلاة، وجمال القمر وليلى وبثينة».

في موقعه غير المتحول عن مبادئه الفطرية في الحياة، فرض التويجري على مراسليه ومحبيه احترامه لثبات فلسفته ومعتقده ووفائه لهما، حتى أولئك الذين كانوا يعارضون مبادئه، وينهلون من معين مستورد أفكارهم واتجاهاتهم كانوا يستسلمون أخيراً، ويسلمون بصحة مبادئه واستقامتها، يتراجعون لا لأنه بدا لهم واعظاً ومرشداً، بل لأن تجارب الحياة وتعب الروح على دروب الغربة والضياع قادتهم إلى الاقتناع بأنهم تعلقوا بخيوط العنكبوت، ولأبد أن تنقطع بهم، وقد أيقنوا أن المتمسك بحبل الله يتمسك بأمراس متينة لاترمي في الهاوية، ولا تطوحة في لجة الفراغ والوحشة.

أما طريقه التعبير عند «التويجري» فهي نمط جديد من الكتابة تندمج فيها طرق البيان مع المعنى اندماجاً متواشجاً حتى ليغدو المجاز نفسه متوحداً مع ما يعبر عنه في وحدة كلية لا تنفصم. بعض الكتاب يتحايلون على تسطيح الفكرة بالتزيين البلاغي الذي يبهر، وبعضهم على نقيض ذلك يفهمون الاسلوب تعبيراً مباشراً. أما «التويجري» فثمة توحد في كتابته بين الدال والمدلول في نسيج واحد لاينفصم، وإذا كان كاتب نهجه ومدرسته في التعبير، فإن «التويجري» يجمع في عبارته بين العقل والشعور، والحس والروح، والحقيقة والمجاز، والذات والموضوع، والواقع والحلم في ديباجة أصبحت وقفاً عليه، وعز تقليدها.

اعتقد أن رواد النثر الذين سبقوه أمكن مجاراتهم والتفوق عليهم، ونلاحظ أن نهجه الكتابي عصي على التقليد، وبذلك نستطيع أن نفسر حيرة أصدقائه وترددهم في الكتابة إليه بسبب شعورهم بالتقصير أمام بيانه المبتكر الذي لم يألفوه.

كتب إليه الأديب الشيخ أحمد محمد النعمان وهو أحد أعلام النضال السياسي والأدباء المبدعين في «اليمن» يصف موقف أحد أعلام الكتابة من رسائل التويجري .. فقال: «وسأعود بك مرة أخرى إلى كلمة ذلك العملاق الجبار الذي هالنا بفكره في شبابنا، كما أذهلتنا أفكارك

في شيخوختنا، والذي رُمي منك بداهية، وقف أمامها خاشعاً عاجزاً عن مجاراتك، يردد على أسماعنا قوله: «المراسلة مع الشيخ عبدالعزيز ورطة، فإما ألا نرد عليه وهذا شيء مخز ومخجل وفاضح، وإما أن نحاول الرد فنعجز ولاندري ما نقول..»

ويضيف «النعمان»: «وإني لأستعين عليك اليوم في الرد على رسائلك بأول رسالة لك، قرأتها قبل عام مضى.. ولن أقول إني كنت كالباحث عن حتفه بظلفه، ولكني كنت كالظمآن في ظل إنسان .. أغرقني بأفكاره وعواطفه ومشاعره..».

ويكتب إليه الكاتب المصري لطفي الخولي: «تبدو كلماتك في هذه الرسالة البليغة بلاغة السهل الممتنع كما يقولون، بسيطة كالنهر الجاري، أو كالشمس حين تصعد بالشروق، رغم أنها مثقلة بهموم من اتحدت معاناته مع معاناة البشر في أمته، فإنها تمنح لابل تزرع الأمل في الإنسان العربي المعاصر الذي يكابد هزيمته ويغالب أخطاءه..».



يوسف إدريس

ويكتب إليه الكاتب يوسف إدريس: «إحساس عميق يربطني بالكاتب المبدع فيك، ذلك الذي تذهلني قدرته على الإبداع التلقائي الفوري، وهو الشيء الذي لاأستطيع أن أفعله».

نستنتج من ذلك أن هناك تدفقاً وطواعية في التعبير لدى الشيخ «التويجري» وبساطة وراءها عمق غور، وفكر يقدم بأسلوب غير مباشر يستعير ضرورات الصحراء التي تتكلم بلسانه أو يتكلم بلسانها.. إنها فلسفة الرجل العادي البسيط الذي يلاحظ بذكائه الفطري ما يصعب ملاحظته على المثقف الذي طبعته الثقافة..

يقول عن التاريخ:

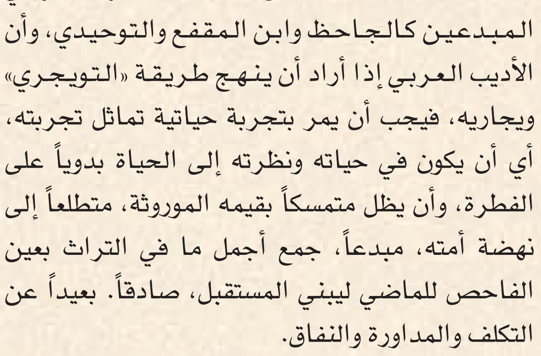
«رأيت أكثر مافيه تاريخاً للأقوياء، وربما الطغاة، ولكني لم أر فيه فلسفة الرجل العادي، بل في أكثر الحالات، أشهده رماداً في الحريق ساقه إليه طاغية جبار..»

إنه يبصر التاريخ بعين زرقاء اليمامة التي تنذر قومها بالخطر، فوق مرقبها، أو يجوس في ثناياه. حصان امرئ القيس، ببساطة البدوي، ليعلم ويعظ ويردنا إلى جادة الصواب.

رسائل الكاتب الشيخ عبدالعزيز بن عبدالمحسن التويجري قد يستهلها بالمجاملات، أو يتحرر منها إلى إبراز مشاعره أو تأملاته حول ما يكتب إليه.. يقول: «لا أعرف كيف استقرئ رسالتك الكريمة على هوامش بشرية، فهي لم تكن رسالة كلماتها عجائز خاملات الذكر، تصابين على مفترق الطرق، ولكنها نجوم تناثرت على ورقي..»

ثم يكون العرض المسهب والمفصل الذي يضمنه «التويجري» عصارة فكره ومشاعره وسحر بيانه، وقد يعزز رحلته الفكرية بشواهد من الشعر أو القرآن الكريم، وكثيراً ما يعتذر إلى المرسل إليه من استطراداته بتواضع، أو يستسمحه من تشاؤم يقوده إليه واقع الأمة، وتتألق صوره المبتكرة كقوله: «ليس هذا مني عنصرية يابسة أضلاعها، لا أعرف هل سخرت مني الأماني، وأخلت بتوازن الرسالة، أنام ليلة الحلم على كثب من الرمال، رقد عليه البدوي في ليلة مقمرة في أودية نجد».

ويأتي ختام الرسالة متألقاً فيه من الطرافة والجدة ما لم نألف: «لاتخف علي من جنون قيس، فذاك قلبه، لايشم غير روائح الربيع تحمله إليه صبا نجد، أما اليوم فلم تعد لنا صبا، وتبدلت الروائح وحريق النفط أحرق القلوب، وغيَّر ملامح الطبيعة في مياه الخليج، وفي الصحراء لم نجد لنا ملجأ نجادل فيه الأحداث وسأم الذات غير الورق مع من نحب، ولك اعتذاري وتحياتي..».



إن أسلوب الشيخ عبدالعزيز التويجري مدرسة تضاف إلى مدارس كُتَّاب النثر العربي المبدعين كالجاحظ وابن المقفع والتوحيدي، وأن الأديب العربي إذا أراد أن ينهج طريقة «التويجري» ويجاريه، فيجب أن يمر بتجربة حياتية تماثل تجربته، أي أن يكون في حياته ونظرته إلى الحياة بدوياً على الفطرة، وأن يظل متمسكاً بقيمه الموروثة، متطلعاً إلى نهضة أمته، مبدعاً، جمع أجمل ما في التراث بعين الفاحص للماضي ليبني المستقبل، صادقاً. بعيداً عن التكلف والمداورة والنفاق.

وربما عز وجود مثل هذا الإنسان في عصرنا الذي يطوي منا أنفس ما فينا، ليصوغنا وفق مشيئته لامشيئتنا ونحن مستسلمون. ولايعني ذلك أن التويجري يريد أن يعيدنا إلى عصر الناقة والركائب – كما قدمت – فهو يؤمن بالتطور، ويريد لأمته في هذه الرسائل أن تواكب العصر، ويأسى لها أنها لم ترد الفضاء مع الرائدين، ولم تمارس دورها الحضاري الذي كان لها، ويرى سر تخلفها في تخليها عن قيمها وتبعيتها الغرباء في التواكل والكسل اللذين لاتحسد عليهما. ■

أسلوب الشيخ عبدالعزيز التويجري مدرسة تضاف إلى مدارس كُتَّاب النثر العربي المبدعين كالجاحظ وابن المقفع والتوحيدي

التفكير الإيجابي
وأثره في العمل والحياة اليومية

إعداد: د. عيسى بن علي الملا*

«التفكير الإيجابي» ليس مجرد مصطلح آخر يضاف إلى غيره من المصطلحات، ولا هو أسلوب جديد من أساليب التفكير العصري، وإنما هو الطريق لسبر أغوار الذات التي لاترضى بديلاً عن أعلى مستويات التقدم والنجاح، بل يصح القول إن التفكير الإيجابي هو الاختيار الذي يميز الحقائق عن الأوهام.

الهدف الأساس من هذا المقال هو طرح برنامج عملي يمكننا من استغلال طاقاتنا الكامنة لأجل تحقيق المزيد من الأهداف على طريق تنمية قدراتنا ومواقفنا واتجاهاتنا لنصبح أكثر فاعلية ونجاحاً. فالغاية هي مساعدة القارئ على التفكير الإيجابي في كل جانب من جوانب الحياة، ليصبح شخصاً فاعلاً ومؤثراً في مجتمعه بشكل جيد. وسوف يتبين لنا أن المعلومات المتوفرة ستساعدنا على توسيع آفاقنا الفكرية لكي نستطيع فهم أنفسنا وبالتالي نضع تلك الأداة الموجود أصلاً في تكويننا موضع التنفيذ، ونستخدمها بطريقة تمكننا من أن نصبح الشخص الذي نتمنى أن نكونه.

رؤية الأشياء على حقيقتها ليست دائماً بالبساطة التي نفترضها، لأن مقدرتنا على خداع أنفسنا لا حدود لها

النمو الشخصي والفهم

يولد الطفل ويتربى في كنف أبوين يصوغان له حتى سن معينة من عمره، مفردات حياته الأولى، ولكي يساعد هذان الأبوان مولودهما على الاعتماد على نفسه شيئاً فشيئاً حتى يشب عن الطوق، فإن المصلحة تقتضي أن ينسحب الأبوان تدريجياً من مركز صنع القرار بالنسبة لمفردات حياة هذا العضو الجديد في المجتمع. إن الانسحاب التدريجي من مسؤولية اتخاذ قرارات نيابة عن الطفل، هو أول لبنة في بناء الشخصية المميزة لهذا الوافد الجديد إلى المجتمع الإنساني.

فإذا بدأ الوالدان بمساعدة الطفل عند سن معينة على استخدام أجهزته التي وهبها الله له لتعمل عملها الذي أوجدت من أجله، فسيبدأ هو بعد ذلك في صوغ قراراته واختياراته في الحياة اعتماداً على الأساس الذي أرساه هذان الوالدان، والذي يجب أن يكون مبنياً على القيم الدينية والأخلاقية والعرف والتقاليد.


يصوغ الأبوان مفردات الحياة الخاصة بطفلهما الصغير

* مدرب إداري ومستشار في إدارة تطوير الكفاءات بأرامكو السعودية

التصور الذاتي

هل تعرف وجه الشبه بين العقل والمظلة؟ كلاهما لا يعمل بشكل صحيح إلا إذا انفتح.

تشير دراسات عديدة إلى أن معارفنا التقنية والفنية والتدريبية تشكل ١٥٪ فقط من مجموع معارف الإنسان، بينما تمثل الـ٨٥٪ الباقية العديد من الأمور والصفات الشخصية الكامنة في داخلنا. منها على سبيل المثال: الهدف كجزء من تكوين الإنسان، والذاكرة والتذكر، والإبداع، والتخطيط، والحذر والهدوء، والحماس، واللباقة والدبلوماسية، والاسترخاء، والثقة الشخصية، والرفق والمودة، الإقدام والشجاعة، العلاقة الطيبة مع الآخرين.

لماذا يرى الآخرون ما لا نراه؟

إن رؤية الأشياء على حقيقتها ليست دائماً بالبساطةالتي نفترضها، لأن مقدرتنا على خداع أنفسنا لا حدود لها، حيث يبني كل منا تصوره الخاص عن الحقيقة في حدود عالمه وقدرات حسه وعقله. لذلك فإن ما تراه في خيالك هو ما تفكر فيه، وما تفكر فيه هو ما ستحصل عليه. لذا: فإن من العبث الدخول في جدل مع من لا يعرف الانضباط أو حسن التصرف مفترضين أنه سيفهم ما نتحدث عنه. كما أنه من الخطأ أيضاً أن نفترض أن من نجادلهم سوف يغيرون من قناعاتهم هكذا فجأة لمجرد أنهم فهموا ما نتكلم به. فالإنسان هو نتاج تراكمات سابقة حدثت في ماضيه عبر زمن طويل فشكلت شخصيته الحالية، وسوف يكون من غير المنطقي الاعتقاد بأنه سيتغير بين عشية وضحاها، فالأمر يحتاج إلى التدريب العملي والجهد المتواصل وإرادة التغيير.

إن كل إنسان يحمل صورتين عن نفسه:

- صورة الشخص الحالي الذي يعرفه في قرارة نفسه ويعرف عنه جوانب كثيرة لا ترضيه.
- وصورة الشخص الذي يتمنى أن يكون: هادئاً متحمساً واثقاً من نفسه، يعرف ما يريد، يتصف بالتصميم ومستعد لمواجهة أي موقف والسيطرة عليه وينال احترام كل من يعرفه.

وعملية المد والجزر الحاصلة بين هاتين الصورتين، هي نعمة أسبغها الله علينا تجعلنا نطمح دوماً إلى الأفضل.

إن عدم الرضا عن حالتنا الراهنة يدفعنا إلى تغييرها. وعليه، فإن عدم الرضا عن النفس ليس صفة سلبية غايتها بث اليأس والقنوط أو التعاسة في نفوسنا، وإنما هي صفة إيجابية مهمتها دفعنا إلى التقدم والنجاح. وإن دافع الإبداع المتغلغل في داخلنا هو الذي يعزز من رغبتنا في النمو. وقد وهبنا الله مع هذا الدافع، الأداة اللازمة التي تمكننا من هذا النمو والاستمرار فيه عقلياً وروحياً طالما نحن على قيد الحياة.

الصورة الذاتية

لا جدال في أن الصورة الذاتية هي المفتاح الأساس لشخصية الإنسان وسلوكه، فإنجازاتنا تحددها الصورة الذاتية لكل منا. فإذا طرأ تغيير على الصورة الذاتية لأي فرد منا، فسوف يتأثر سلوكه وتتأثر شخصيته بهذا التغيير.

إن الصورة الذاتية لكل منا هي محصلة المواقف المتنوعة التي يتخذها كل فرد انطلاقاً من قدراته في مختلف المجالات التي يتعرض لها، وعلى ذلك فهي الصورة التي يكوّنها كل واحد منا عن نفسه، وهي في غاية الأهمية بالنسبة لكل فرد، لأننا لا يمكن أن نصبح أكثر تأثيراً فيمن حولنا، أو أكثر نجاحاً، أو أشد إبداعاً إلا بقدر ما توحي لنا به صورتنا الذاتية، فهي السقف الذي يحد من امتداد التأثير إلى أبعد حد.

وإذا كانت الصورة الذاتية هي التي تتحكم في قدرتنا على التأثير فيمن حولنا، فإن المعلومات المتوافرة في اللاوعي فينا هي التي تتحكم في شكل تلك الصورة الذاتية. ومن الواضح أنه إذا أردنا تغيير أفعالنا أو مواقفنا من أمر ما، ثم تغيير سلوكنا نحوه، فإنه يتحتم علينا أن نضيف إلى اللاوعي فينا كل المعلومات المناسبة التي من شأنها أن تنعكس على سلوكنا.

الصورة الذاتية والسلوك

إن الطريقة الوحيدة التي نستطيع بها تغيير سلوكنا أو أدائنا تكمن في تغيير صورتنا الذاتية أولاً، لأنها ترفع سقف فاعليتنا، فتوسع منطقة الارتياح، لتسمح لنا باستعمال طاقاتنا الكامنة بشكل أكبر.

مراحل تطور الشخصية السوية

ينمو الناس عبر مراحل تطورية وكذلك المنظمات والمؤسسات. كل يمر بالمراحل ذاتها في نسق متسلسل

لا جدال في أن الصورة الذاتية هي المفتاح الأساس لشخصية الإنسان وسلوكه. فإنجازاتنا تحددها الصورة الذاتية لكل منا

يكاد العلم يقترب من اعتبار العقل والجسد كينونتين منفصلتين في الأداء رغم أنهما في الحقيقة متداخلان، ولكن فصلهما نظرياً ضروري من أجل التوضيح

بدءاً من الثقة، مروراً بالاعتمادية، فالمبادرة، فالجد والمثابرة، فالهوية، فالألفة والعلاقات الحميمة، فالعطاء الخالص، وانتهاءً باحترام الذات. إن كل مرحلة ستقود إلى التي تليها، وإذا عالجناها بالترتيب وبشكل جيد، فإن النمو سيكون على أتمه. وإذا حدث وتجاوزنا إحدى هذه المراحل، فإننا بحاجة إلى بذل الوقت والجهد لإعادة تأكيد تلك الخاصية بالذات.



القلق النفسي الذي يكتنف حياة الإنسان قد يجد له تفسيراً في التصورات المسبغة للفعل الباطن

تحليل عملية التفكير

يكاد العلم يقترب من اعتبار العقل والجسد كينونتين منفصلتين في الأداء رغم أنهما في الحقيقة متداخلان، ولكن فصلهما نظرياً ضروري من أجل التوضيح.

سنتناول هنا ثلاث مساحات مختلفة في العقل من حيث الوظيفة التي تؤديها كل مساحة بمفردها. وتجدر الملاحظة هنا أن العقل في الحقيقة لا ينقسم هكذا، وإنما الذي ينقسم هو العملية الذهنية، والتي هي عملية افتراضية وضعت لتوضيح الأدوار الوظيفية في العقل. وتنقسم هذه العملية تبعاً لوظيفة العقل إلى ثلاثة أجزاء: الوعي، اللاوعي، واللاوعي الابتكاري.

الوعي

إن الوعي هو المظهر العقلي المألوف لنا أكثر من غيره من المظاهر العقلية، التي نعرفها أكثر من غيرها. ووظائفه الرئيسة هي:

- إدراك المعلومات الواردة من البيئة المحيطة ومن داخل الإنسان.
- ربط هذه المعلومات بأخرى ماضية أو مختزنة في اللاوعي، أو تخزينها إن لم توجد قبلاً.
- تقديم الربط بما يتناسب مع مصلحة الشخص، ثم
- اتخاذ القرار لجهة الفعل أو اللافعل.

اللاوعي أو العقل الباطن

للعقل الباطن وظيفتان رئيستان: الأولى التحكم في جميع الوظائف التلقائية في الجسد (أي الوظائف اللاإرادية) مثل ضربات القلب والتنفس والإفراز الغددي.. إلخ، والثانية تخزين كل ما يحدث للفرد في الذاكرة. وهو قادر على دفع أفعال الفرد وأفكاره بصورة تلقائية في أنماط من السلوك تسمى «العادات».

ومن صفاته المهمة عدم التمييز بين عناصر المعلومات الواردة، كأن يقبل بعضها ويرفض البعض الآخر، وإنما يقبل كل ما ينقله إليه الوعي، فهناك اتصال متبادل بين الوعي واللاوعي يجعل تبادل المعلومات أمراً يسيراً. وفي تكويننا جهاز لرصد المعلومات يكاد يكون خارقاً في قدرته، فهو قادر على رؤية جميع المعلومات المتوافرة في الحال. فمثلاً نرى جسماً متحركاً فنستطيع حالاً معرفة أنه سيارة «شيفروليه» ذات بابين، زرقاء اللون، عجلاتها الدائرية الشكل لها إطارات مخططة بالأبيض.

اللاوعي الابتكاري

وهذه هي المساحة الثالثة من مساحات العقل البشري التي نعرفها. أو هي المظهر الثالث من مظاهر العقل، وهي ذات أهمية كبيرة، فالوظائف التي يقوم بها تعدّ من أهم مراحل العملية الفكرية. وهي: الحفاظ على العقل من الجنون، وحل المعضلات بطرق مبتكرة، ودفع الفرد نحو الهدف، وابتكار أساليب جديدة لتحقيق

الأهداف. وجميع وظائف اللاوعي الابتكاري مهمة، نظراً لدورها الحيوي في توازن العقل والنفس معاً.

التفكير الممكن

انزع ساعة معصمك وضعها بجوارك مقلوبة على وجهها. والآن، اكتب وصفاً لوجه الساعة. ما نوع الأرقام التي عليها، لونها، عقرب الثواني، التدرجات، الصناعة...إلخ.

يقول المتخصصون إن الإنسان العادي ينظر إلى ساعة معصمه خمسة آلاف مرة في السنة. لذا يفترض به أن يعرف كل تفاصيلها؟ ولكن الواقع يقول إن الواحد منا يفشل في تذكر تفاصيل ساعته. والسبب في ذلك هو أنك عندما تنظر إلى ساعتك كل تلك المدة، كانت غايتك هي فقط معرفة الوقت. وهنا صلب الموضوع: كم من الأشياء ننظر إليها ولكننا في الحقيقة لا نراها؟

ما الذي نتبينه من المثالين السابقين؟

نتبين أن تصورنا الشخصي للحقيقة هو تصور قاصر وغير دقيق، فهناك دائماً ما لا نراه. بيد أننا نستطيع توسيع مساحة وعينا وقدرتنا على الابتكار إذا استطعنا التوسع في التفسير وإحداث المزيد من الرؤية. فكلما اتسع نطاق رؤيتنا للحقيقة كان تصورنا أكثر دقة.

ويصح القول هنا أن قصور الإنسان عن الرؤية الدقيقة للحقيقة ليس غباءً مثلما قد يظن البعض، وإنما هو فهم خاطئ لها. لذا فليس القصور عن معرفة شيء ما هو نتاج عدم المعرفة به فقط، وإنما قد يكون ناتجاً عن معرفة خاطئة أو ناقصة يتمسك بها المرء تمسكاً شديداً ظناً منه أنها حقيقة مؤكدة، وذلك لأن الناس غالباً لا يفكرون، وإنما يظنون أنهم يفكرون. وبمعنى آخر، هم يحاولون الوصول إلى ما يحسبونه صحيحاً، بل ويجزمون أنه صحيح، بينما هم في الحقيقة يحاولون الوصول إلى وضع اشترطوه مسبقاً، وبالتالي يصدرون أحكاماً مسبقة دون التيقن من الحقيقة.

التفكير الابتكاري

علينا أن نتعلم كيف نفكر بطريقة إبداعية، مستفيدين من ملكة الابتكار التي وهبنا إياها الله، مع تذكرنا أن التفكير الابتكاري يمر بأربع مراحل:

١ – تحديد المشكلة. ٢ – التأمل.

٣ – الاستنارة. ٤ – التطبيق الإبداعي.

ونحن في تسابقنا مع الزمن نلجأ أحياناً إلى الضغط على موظفينا وعمالنا وطلابنا وأولادنا لنحثهم على العمل والمواظبة للحصول على نتائج أفضل، بحيث تدفعنا حمى الإنجاز إلى اللجوء للترهيب والترغيب، ناسين أو متناسين أن النجاح ينبع من الذات، وأن ما من قوة خارجية تستطيع تحقيق ما تصبو إليه النفس إذا لم تكن أصلاً مدفوعة للعمل بروح معنوية عالية لا يشوبها خوف من عقاب ولا رغبة في ثواب، إلا ما كان منه ابتغاءً لمرضاة الله عز وجل أو تجنباً لنواهيه.

الحديث الذاتي والصورة الذاتية

إن الصورة الذاتية هي الكم المتراكم المختزن لكافة الأفكار والآراء المتصورة، وتشكل المواقف والعادات جزءاً من هذه الصورة. ونحن بدأنا ببناء صورتنا

إن قصور الإنسان عن الرؤية الدقيقة للحقيقة ليس غباءً مثلما قد يظن البعض، وإنما هو فهم خاطئ لها

ماذا ترى في هذه الرسومات؟

انظر إلى الرسومات الظاهرة أعلاه وحدّق فيها جيداً، ولكن هذه المرة ركّز على المساحات البيض لا السود. ماذا ترى؟

إن معظمنا لا يرى الكلمة الإنجليزية «FLY» لأول وهلة، والسبب في ذلك أننا اعتدنا الكتابة بالأسود على خلفية بيضاء، ولم نعتد الكتابة بالأبيض على خلفية سوداء، فيسبقنا النظر عفوياً إلى المساحات السوداء محاولين رؤية كلمة مكتوبة بالأسود، فلا نرى غير رسوم غير مفهومة وكأنها مكتوبة بالهيروغليفية، وذلك لأننا كنا نبحث عن الرسمة التي نحملها مسبقاً في أذهاننا، فاحتجبت عنا الحقيقة.

الذاتية عند الولادة، وما تزال عملية البناء مستمرة حتى اليوم. وحالما نواجه أمراً جديداً نسجل تصورنا له مصحوباً بردود أفعالنا العاطفية تجاهه مع تفسيرنا لهذا التصور.

والجدير بالذكر، أن نظام التفكير لا يفرق بين الحقائق و«تخيل» الحقائق، فالصورة الذاتية هي التي تحدد أين ومتى يكون المرء في منطقة الراحة، سواء أكانت هذه الصورة متطابقة مع واقع الحال أم تخيلاً ووهماً، إذ أن الإنسان سريع التكيف قادر على التأقلم بما يتناسب مع صورته الذاتية، وهذا سلاح ذو حدين، حيث يقبل السير في تفكيره باتجاه المعوقات التي تصرفه عن القرارات الإيجابية، وبما يتطابق مع صورته الذاتية من جهة، ويساير الظروف البيئية والمتغيرات الأخرى بدلاً من التغيير الإيجابي البنّاء، من جهة أخرى.

إننا لا نعدو الصواب إذا قلنا أن دائرة الحديث الذاتي هي التي تشكل صورة الإنسان الذاتية وبالتالي تشكل له شخصيته وسلوكه بين الناس. ولما كانت المحادثة الذاتية هي نتاج ما يفكر فيه الإنسان، فإن التفكير بالإيجابيات دون السلبيات من أهم ما يجب أن يتصف به الإنسان الناجح من عادات.

دائرة الحديث الذاتي هي التي تشكل صورة الإنسان الذاتية وبالتالي تشكل له شخصيته وسلوكه بين الناس

الجدول اليومي

نضع بين القارئ برنامجاً يومياً يستطيع باتباعه جعل رحلته في هذه الحياة تسير دائماً نحو الرفعة والتقدم والنمو.

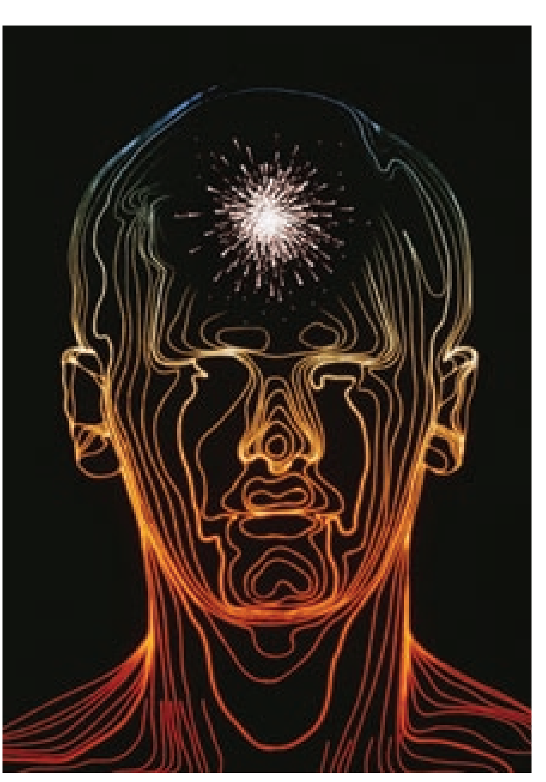
١ – لا تسمح إطلاقاً لأية فكرة سلبية أن تبقى في ذهنك. قال تعالى:

فالأفكار السلبية تعد من وساوس الشيطان كما قال تعالى:

بل حاول فوراً إبدالها بفكرة إيجابية وبذكر الله سبحانه وتعالى. قال تعالى:

ولكي تزول الفكرة السلبية تماماً، قم بعمل إيجابي أو فعل خير يساعد في إقناعك بأن الفكرة السلبية قد تلاشت نهائياً.

٢ – لتكن أفكارك دوماً إيجابية عندما تأوى إلى فراشك. حدّد ما تنوي أن تفعله في اليوم التالي واخلد للنوم على ذكر الله وتسبيحه وفي ذهنك قناعة راسخة بأن عقلك المبدع المبتكر سوف يعمل خلال الليل بإذن الله تعالى على مساعدتك بصورة تجعلك تتصرف في اليوم التالي، بطريقة ترضي الله سبحانه وتعالى، وترضي كل من لهم علاقة بذلك العمل.



تنقسم وظيفة العقل إلى ثلاثة أقسام: الوعي، واللاوعي، واللاوعي الابتكاري

٣ – احتفظ بالأفكار المرحة، لأن الذهن الذي يزدحم بالأفكار الكئيبة الحزينة لا يستجيب بسهولة للتفكير الإيجابي مثلما يستجيب له الذهن الذي تملأه الأفكار السعيدة.

٤ – ابدأ يومك بحماس، وافرح عند النهوض لأنك تستقبل يوماً آخر من السعادة والازدهار، ولتعلم أنه عبر ساعات يومك كله، سوف تقودك أفكارك وأعمالك نحو النجاح في كل ما تحاول فعله بإذن الله تعالى.

٥ – تحدث عند الإفطار عن سعادتك وحماسك، وبأنك تشعر بأن يومك سيكون عظيماً، وإذا كنت بين أناس لم ينعموا بعد بلذة التفكير الإيجابي فسوف يكفيك سعادة أنك مختلف عنهم. وإذا أمضيت وقتاً مع شخص متحمس، يعمل كثيراً، فإنك حينما تغادره ستشعر برغبة قوية في التفاعل مع الحياة والاندفاع

للعمل. وبقدر الإمكان، تجنب الارتباط بالسلبيين من الناس، إلا إذا كنت تستطيع مساعدتهم في تعلم الاستفادة من نعم التفكير الإيجابي.

٦ - اعمل على ألا يمر بك يوم دون إحراز شيء من التقدم إلى أن يصبح ذلك عادة فيك.. وعليك أن تتخذ - بوعي منك - خطوة متقدمة كل يوم، وبعد وقت قصير، ستمتلئ حياتك بالمكاسب والفرح، بحيث لا يكون فيها مكان لغير التقدم.

٧ - عندما تصل إلى الشعور بأن عملك قد تم، وبأن الاطمئنان قد ترسخ في نفسك، استمر في التقدم في مجالات أخرى. فهناك العديد من وسائل التقدم غير الوسائل المتعلقة بالربح المادي، كالموسيقى والرسم والكتابة أو أي من المهارات والفنون الكثيرة.

٨ - إن الشيخوخة تسير يداً بيد مع العقل الخامل، والشباب صنو للعقل النشيط، لأن الذهن الفتيّ يساعد الجسم على الاحتفاظ بشبابه فترة أطول من الذهن الغارق في أفكار الشيخوخة. وإذا لم تملأ ذهنك بالأفكار البناءة الحية، فسوف يغرق حتماً في في الأفكار المحبطة والسلبية - لا سمح الله.

كيف تخطط للوصول إلى النجاح؟

تستطيع ذلك بوضع الأهداف واختيار الأولويات، ثم بالعناية بالتخطيط وعدم تأجيل النجاح، مع إدراكك في قرارة نفسك ألا أحد غيرك سيؤدي لك عملك كما تريده أن يكون، وذلك مع الأخذ بعين الاعتبار العقبات المحتملة، والتزود بالتصميم والإصرار على بلوغ الهدف. وبعد الانتهاء من مرحلة ما، عليك أن تعمل على تقويم إنجازك لترى إذا كان بالمستوى المطلوب، مفسحاً المجال للتغييرات الضرورية. وعليك أن تدرك أن الفشل خبرة، وأن عدم تحقيق الهدف من المحاولة الأولى أمر عادي وليس مدعاة إلى اليأس والتراجع والشعور بالإحباط. إن أنجح الناس من ينهض بعد كل كبوة، متسلحاً بعزيمة أقوى وأمضى، وبرغبة أشد في تحقيق النجاح. إن المرونة مفتاح الوصول إلى أداء أفضل، فتعرّف على مقدرتك على النهوض من جديد، تكن أكثر فاعلية وأوفى نجاحاً ■

---

* صور الموضوع: مطابع التريكي

وصفة التفكير الإيجابي

ابدأ نهارك كل يوم بقراءة الآتي:

- بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، صلى الله عليه وسلم. «أصبحنا وأصبح الملك للّه» .
- ما أفعله اليوم مهم، لأنني أشتري هذا الفعل بيوم جديد من أيام حياتي. فعندما يأتي الغد، سيختفي هذا اليوم إلى الأبد تاركاً مكانه للعمل الذي اشتريته به.
- أعاهد نفسي على أن يكون يومي هذا للربح وللخير وللنجاح لكي لا أندم على الثمن الباهظ الذي دفعته.
- تفكيري هادئ ومواقفي إيجابية.
- أعامل الآخرين برفق وأشعر نحوهم بمودة.
- إنني أتحمل زلات الآخرين وأخطاءهم، وأنظر إلى أفعالهم بكثير من التفهم وسعة الصدر.
- إنني أعمل كما لو أنني سأبلغ أهدافي حتماً، فأنا عين شخص الذي أطمح أن أكونه، وكل ما أفعله وأحس به يعبّر عن هذه الفردية، لذلك لن أسمح للسلبية أو التشاؤم بالتأثير على مواقفي أو تقديري للأمور.
- إنني أحاول أن ابتسم في أغلب الأوقات عدة مرات في اليوم على الأقل.
- إنني استجيب بهدوء وذكاء لجميع الحالات مهما كانت متباينة.
- إذا فقدت السيطرة على أحد المواقف، أحاول التصرف بإيجابية حتى لو كانت الحقائق ضد ذلك.
- أعرف تماماً أنني كرست عادات من شأنها تمكيني من التصرف على النحو السابق، وسيكون لذلك أبلغ الأثر على صورتي الذاتية بشكل إيجابي بناء.
- سوف أجعل هذه الأفعال جزءاً من حياتي، وسوف ألاحظ زيادة مؤكدة في ثقتي بنفسي.

(اقرأ الجمل السابقة يومياً لمدة ٢١ يوماً)

عدم تحقيق الهدف من المحاولة الأولى أمر عادي وليس مدعاة إلى اليأس والتراجع والشعور بالإحباط

قل ولا تقل

بقلم: د. كمال سعد أبوالمعاطي*

■ **قل: اقتبس فلان مني بعض آرائه.**

ولا تقل: اقتبس عني بعض آرائه.

وذلك لأن الفعل (اقتبس) يتعدى في مثل هذه المواضع بحرف الجر (مِنْ) قال تعالى:

قال ابن دريد: قبست من فلان ناراً، واقتبست منه علماً.

وقال ابن منظور: اقتبست ناراً واقتبست منه علماً أيضاً أي: استفدته. قال الكسائي: اقتبست منه علماً وناراً سواءٌ. وعليه نقول عند استعمال هذا الفعل: اقتبس الباحث من المصادر ما يدعم بحثه. ولا تقتبس من الآخرين دون إشارة لهم، فإن الاقتباس من الكتب أمانة علمية.

■ **قل: وصّيت المَسْؤول بولدِكَ..**

ولا تقل: وصيت المسؤول على ولدك.

لأن الفعل (وصى) لا يستعمل معه من حروف الجر إلا (الباء) سواء كان مضعفاً بالتشديد كما رأينا وكما في قوله تعالى: وقوله

أو كان مهموزاً كما في قوله تعالى:

أو مبنياً على المفاعلة كما في قوله تعالى:

وعليه لك أن تقول: هذه رسالة موصّى بها، ووصيت الطبيب بك وأوصيت والدك بك خيراً.

■ **قل: التقيتُ مديرَ المدرسةِ.**

ولا تقل: التقيت بمدير المدرسة.

وذلك لأن الفعل (التقى) يتعدى بنفسه وليس في حاجة إلى حرف جر، وقال ابن سيده: التقاه، والتقينا، وتلاقينا والتقوا وتلاقوا بمعنى واحد.

---

* أستاذ بكلية المعلمين بالأحساء قسم اللغة العربية.